أيام من رمضان

محمد سليم العوا

دار الشروق

أيام من رمضان

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٧٣٦٩
ISBN 978-977-09-2915-4

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

محمد سليم العوا

أيام من رمضان

دار الشروق

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهر رمضان شهر ذكريات عزيزة على المسلمين، وهو مناسبة تتكرر كل عام لاجتماع الناس، وتبادل الأفكار، والبحث في الماضي، والنظر إلى المستقبل، وتكثير الطاعات، وتقليل الذنوب والهفوات.

والانشغال بالذكريات الدينية، والشعائر التعبدية في رمضان ينسي كثيرًا من الناس العودة إلى الوقائع السياسية والأحداث المؤثرة في صنع تاريخ الدولة الإسلامية من عصر النبوة إلى عصر الناس هذا. والاهتمام بالشأن العام، والنظر فيه على أساس من قيم الإسلام يقتضي أن نعاود النظر المرة بعد المرة إلى تلك الوقائع والأحداث؛ نظرًا يقف عند أسسها ومعالمها الرئيسية محاولاً قراءتها بروح تناسب العصر الذي تتم فيه هذه القراءة، ويهدف إلى الإفادة منها في الحركة السياسية والثقافية الإسلامية ليهتدي المستقبل بدروس الماضي، ويتأسى الحاضر بما كان فيه من عبرة وقدوة.

وقد شهد رمضان على مدار عمر الإسلام أيامًا عظيمة خلدها التاريخ، وغيَّر بعضها من معالم تاريخ الإنسانية كله، وعلم بعضها المسلمين دروسًا لا تنسى، ولأنه شهرٌ يرفع من الروح المعنوية للمسلمين ويقوي قدرتهم على العطاء لدينهم فإن كثيرًا من هذه الأيام كانت من وقائع القتال في سبيل الله الذي آزر النصر فيه المسلمين مؤازرة غيرت من واقعهم ومن واقع أعدائهم، ووضعت لبنات ثابتة في بناء الدولة الإسلامية في زمنها القديم والحديث.

وقد اخترت لهذا الشهر الكريم (رمضان ١٤٣١هـ) عددًا من الأحداث المهمة في التاريخ الإسلامي السياسي، وقفت عند كل حدث منها محاولاً صنع ما ذكرت من تحقيق الفائدة للحاضر والمستقبل في ضوء دروس الماضي ووقائعه.

وتبدأ هذه الأيام بيوم بدر الذي هو يوم النصر السياسي الأول في تاريخ الإسلام والمسلمين. ثم تمر بنا في هذه الأيام وقائع من قرون الإسلام الأربعة عشر الماضية إذ يأتي لقاؤنا مع اليوم الأخير في حرب رمضان ١٣٩٣هـ = أكتوبر ١٩٧٣م.

وبين هذين اليومين العظيمين تأتي أيام عديدة وقعت في أماكن مختلفة من أرض الإسلام، لكل يوم فيها خصائصه وأسبابه ونتائجه التي ينبغي أن نعلمها لأبنائنا، وأن نجعل منها حديثًا نافعًا في مجالسنا، وأن نعرف أسماء الأماكن ومواضعها، وأن نعرف أسماء الأبطال الذين شاركوا في مواقعها وأن ندرك أثر كل يوم منها في إنشاء حضارتنا، أو المحافظة عليها، أو توسيع نطاقها.

إنه قول مكرور معاد، لكنه صحيح الصحة كلها، إن الأمم التي لا تعرف تاريخها لا حاضر لها ولا مستقبل. لكن التاريخ ليس سردًا فحسب، ولا هو تحقيق رواية وتصحيحها من بين روايات متعددة للحدث الواحد، إنما التاريخ في حقيقته عبر وعظات ودروس تأخذ الأفهام منه ـ كما قال المتنبي ـ على قدر القرائح والعقول. وكثير من الناس يخجلون من تاريخهم ويتنصلون من حقائقه لأن بعض ذوي الأقلام والألسنة في زماننا لا يحسنون النظر إليه ولا الثقة به، وهؤلاء ينسون أنه من صحيح الأمثال قول الشاعر:

وكم من عائب (أمرًا) صحيحًا

وآفته من الفهم السقيم!!

ومن غايات هذه السلسلة المعنية بأيام رمضان أن تصحح بعض الأفهام، وتصوب بعض الأفكار، وتعين شبابنا على فهم تاريخه والأُنس به والفخر بحقائقه

في مواجهة الذين ينكرون علينا ذلك كله أو بعضه. فليس كمثل ذلك طريق لصناعة الأبطال، وتقوية الأجيال، واسترداد المجد المفتقد لا المفقود. فإن حال من يشعر أن له مجدًا قائمًا حقيقيًّا يفتقده أنه يثابر على العمل المستمر من أجل هذا المجد، ويضحي بالغالي قبل الرخيص في سبيل استرداده والعودة إليه.

وحال من يشعر أن مجده مفقود ضائع لا سبيل إلى تجديد العهد به أن يبكي عليه ويحزن لفقده ويقعد عن أي جهد يتقدم به خطوة واحدة في سبيل صناعة مجدٍ جديد.

وهذه الأمة الإسلامية تفتقد مجدها منذ فقدته، ويعمل المصلحون فيها واحدًا بعد واحد، وجيلا في أثر جيل لإحيائها، وتحقيق نهضتها الحضارية.

وإذا أدت هذه السلسلة من أيام رمضان دورًا في هذا السبيل فذلك ما كنا نبغي، وإلا فالخير أردت وإليه قصدت.

محمد سليم العوَّا

قرية المروة ساحل مصر الشمالي

٢٣ من شعبان ١٤٣١هـ

٤/٨/ ٢٠١٠م

* * *

غزوة بدر

فهذا حديث عن غزوة بدر الكبرى، التي سماها القرآن الكريم يوم الفرقان، لأن النصر فيها فرق بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

كان من مقدمات هذه الغزوة السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ إلى ما حول المدينة المنورة من مواطن استقرار العرب:

هي ثماني سرايا، الأولى بقيادة حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين من المهاجرين، وكانت في أول رمضان من السنة الأولى من الهجرة؛

والثانية بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب كانت في شوال من السنة نفسها؛

والثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص في ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة؛

والرابعة قادها رسول الله ﷺ بنفسه في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة، واستخلف سعد بن عبادة على المدينة؛

ثم كانت السرية الخامسة، في ربيع الأول من السنة الثانية، قادها رسول الله ﷺ في مائتين من المسلمين؛

ثم كانت السرية السادسة، في جمادى الأولى من السنة نفسها، خرج فيها رسول

الله ﷺ في مائة وخمسين من المسلمين فبلغ موضعًا يسمى ذو العُشَيْرة، قريبا من ينبع، وصالح بعض قبائل العرب، وعاد إلى المدينة؛

ثم كانت السرية السابعة، خرج فيها رسول الله ﷺ يطلب كُرز بن جابر الفهري، الذي كان قد أغار على المدينة وساق إبلا للمسلمين، فخرج يطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادي سفوان، قريبا من بدر، فلم يدركه. وتسمى هذه السرية غزوة بدر الأولى؛

ثم كانت آخر السرايا سرية، عبد الله بن جحش، الذي خرج في عدد قليل من المهاجرين، قيل كانوا ثمانية وقيل كانوا اثني عشر رجلا، فمرت به قافلة لقريش فهاجمها ومن معه من المسلمين، فَقُتِلَ قائد القافلة، عمرو بن الحضرمي، وأُسِرَ اثنان ممن كانوا معه، وفر الباقون. وغنم عبد الله بن جحش القافلة، وآتي بها وبالأسيرين رسول الله ﷺ فتوقف في شأنهم، لوقوع القتال في الشهر الحرام (رجب)، فنزل قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقد كان لهذه السرايا حكم بالغة: أولها، إشعار مشركي يثرب، ويهودها، والأعراب من حولها، بأن المسلمين أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ودينهم، وذلك أن المتربصين بالإسلام في المدينة كانوا كثرًا لن يصدهم عن الكيد له إلا الخوف منه (!).

ثانيها، إنذار قريش بأن حربها للإسلام والمسلمين لن تستمر بلا عقاب، وبأن ما أوقعته بهم قد جاء وقت القصاص منه، وأنها لن تفلت بجرائمها ضد المسلمين بعد الآن.

ولم يقع في السرايا جميعا، سوى سرية عبد الله بن جحش، قتال لأسباب لا يد للمسلمين فيها، وكأن ربنا ـ تعالى جده ـ قد ادخر قوتهم ليوم تشتد فيه الحاجة

إليها، ليوم الفرقان، والحكم المستفادة من هذه السرايا تدخل تحت بعض معاني قوله تعالى: ﴿ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ ﴾ (الأنفال: ٦٠).

□

بلغ النبيَّ ﷺ، والمسلمين في المدينة، أن قافلة لقريش فيها ألف بعير تتجه من الشام إلى مكة يقودها أبو سفيان بن حرب في نحو ثلاثين أو أربعين رجلا. فقال النبي ﷺ لأصحابه، الذين خسروا أموالهم كلها في هجرتهم إلى المدينة، واستولت عليها قريش: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها». وخرج النبي ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا يريد العير، لكنها أفلتت بسلوك طريق آخر، وخرجت قريش في تسعمائة وخمسين رجلا تريد أن تثبت للعرب أنها لا تخاف المسلمين، وأن قوتها هي التي تحفظ أموالها، وكانت مشورة أبي جهل لقريش أن يقيموا عند بدر فينحروا، ويُطعِمُوا الطعام ويسقوا الخمور، فتسمع بهم العرب فتهابهم أبد الدهر. وشاور النبي ﷺ أصحابه فصَدَقوه القول، مهاجرين وأنصارًا، حتى قال سعد بن معاذ: «فامض يا رسول الله لما أردت، فنحت معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا. إنا لصُبُر في الحرب صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. صِلْ حبال من شئت، واقطعْ حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالِمْ من شئت، وخُذْ من أموالنا ما شئت، وأعْطِنا ما شئت، وما أَخَذْتَ منا كان أحبّ إلينا مما تركت» فسُرّ رسول الله ﷺ بذلك، وقال لأصحابه: «سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مَصَارع القوم»، وأشار إلى مواضع سمَّى فيها مصارع رجال من قريش، فما عدا أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ وأخذ رسول الله ﷺ. يتفقد الرجال ويُذَكِّرهم اللهَ والدارَ الآخرة، ثم يعود إلى عريش هُيِّئَ له (موضع يستظل به من الشمس) فيدعو ربه، ويتضرع إليه بمثل قوله:

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض بعد اليوم». واجتهد في الدعاء حتى سقط رداؤه عن منكبيه، ووقف أبو بكر وراءه، يرفع عليه رداءه، مشفقًا عليه، يقول: «يا رسول الله بعضَ مناشَدَتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك». والتقى الجمعان بهجوم بدأه المشركون، ورد عليهم المسلمون، والنبي يحرضهم بقوله: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبًا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». وأيد الله المسلمين بملائكته كما قال في كتابه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢).

وقد أُرِيَ رسول الله ﷺ هؤلاء الملائكة، فقال لأبي بكر، «أبشر يا أبا بكر(!) أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع (أي الغبار)» واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، وقتل من صناديد الشرك والكفر سبعون وسقط في الأسر آخرون وفر الباقون ليرووا لمن خلفهم عاقبةَ الظلم وجزَاءَه.

□

لقد مَنَّ الله ـ تعالى جده ـ على المسلمين يوم بدر مِنَنًا عظيمة، أشارت إليها الآيات من سورة الأنفال:

وعدهم إحدى الطائفتين الغنيمةَ بغير حرب بأخذِ القافلة، أو ملاقاةَ العدوِّ فيكون النصر أو الشهادة ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٧).

ووعدهم مع ذلك بالنصر النهائي ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (الأنفال: ٨).

واستجاب لدعائهم فأمدهم بألف من الملائكة مردفين، وبشّرهم بثلاثة

آلاف، وبخمسة آلاف؛ وفي الروايات أن الملائكة قاتلت يوم بدر مع المؤمنين، ولكن القرآن الكريم يقول صراحة، في سورة الأنفال، ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠) ويقول في آية آل عمران ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

وأذهب عنهم مشقة السفر وإجهاده بنوم خفيف ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

وأمر الملائكة بتثبيت المؤمنين ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ (الأنفال: ١٢).

وقارنت الآيات بين حالهم قبل بدر وحالهم بعدها ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦).

فهذه عشرُ مِنَنٍ ظاهرة معدودة، امتن الله بها على المسلمين يوم بدر.

ومع هذه النعم العظيمة، التي كانت محل تلك المنن، عاتبهم، بل عاتب النبي ﷺ، إذ أخذ الأسرى من المشركين فقال سبحانه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧). هؤلاء الأسرى هم السبعون من المشركين أطلقهم الرسول ﷺ إما بفداء يدفعه الواحد منهم وإما بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وكان قبول الفداء من الأسرى هو رأي أبي بكر، وجمهور الصحابة معه، على حين رَأى عمر، وبعض الصحابة الآخرين، ألا يقبل رسول الله ﷺ الفداء؛ وأن يُمَكِّنَ كلَّ رجل من المسلمين من أقاربه المشركين فيضرب أعناقهم.

وبرأي أكثرية الصحابة أخذ رسول الله ﷺ. ومع العتاب نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠). والمقصود بالخير هنا، الإسلام، أي إن يعلم الله أنكم تسلمون، بعد ذلك، يؤتكم أفضل مما دفعتموه فداءً للتخلص من الأسر. وقد حدث هذا فعلا في وقائع منها ما أخرجه مسلم في صحيحه في شأن العباس عم النبي ﷺ أنه جوزي بما دفعه أضعافًا مضاعفة وكان العباس يقول وَدِدْتُ لو أخذ مني أضعافا لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ (الأنفال: ٧٠).

وكان عثمان بن عفان قد تخلف عن شهود بدر ليعتني بزوجته، رقية بنت النبي ﷺ، التي كانت مريضة. فضرب النبي له بسهمه من غنائم بدر كسهم الذين شهدوا القتال فيها.

* * *

إن الدروس المستفادة من يوم الفرقان تتأبى على الحصر، وكل درس منها يتجدد النفع به جيلا بعد جيل من أجيال المسلمين، وفي أحوال الضعف والهوان التي تصيب الأمة، وقتًا بعد وقت، يستحضر المؤمنون إيمانا صادقا قول الله تعالى لرسوله ﷺ ولأهل بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦).

* * *

فتح مكة

عقد رسول الله ﷺ مع قريش صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وكان مما نُص عليه فيه أن من شاء أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت خُزاعةُ في عقد رسول الله وعهده ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم.

وذات يوم اعتدى نفر من بني بكر بن وائل يؤازرهم حلفاؤهم من قريش على رجال من خزاعة، لم يكونوا مستعدين لقتال، فلجأوا إلى الحرم ـ حيث لا يجوز قتال ـ لكن بني بكر، وحلفاءهم من قريش، تبعوهم إلى داخل الحرم ولم يتوقفوا عن القتال فيه.

وكان الباعث على وقوع هذا العدوان من بني بكر على خزاعة ثارات قديمة شغلهم عنها ظهور الإسلام وما أحدثه من حِرَاكٍ في مكة. فلما خرج المسلمون بالهجرة إلى المدينة عادت الصراعات المكية الداخلية سيرتها الأولى.

وفزعت خزاعة مما حل بها، واستنجدت برسول الله ﷺ، تطلب النصرة على من نقضوا عهد الحديبية، والهدنة التي اتفق عليها فيه. واستجاب النبي ﷺ لهذه الاستغاثة وأجاب وافد خزاعة بالنصر، ويروي أهل السير في ذلك شعرًا لا يثبته أهل الحديث، وهو شعر جميل على كل حال (!)

ينسب هذا الشعر إلى عمرو بن سالم الخزاعي، فيزعمون أنه قال أبياتًا منها:

يا رب إني ناشدٌ محمدًا حلفَ أبينا وأبيه الأتلدا
كنت لنا أبًـا وكنا ولـدًا ثُمَّت أسلمنا ولم ننزِع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أيِّدا وادع عباد الله يأتوا مددا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدًا وأهـم أذل وأقـل عـددًا

وهكذا لم يتجهز رسول الله ﷺ ـ صحت رواية هذا الشعر أم لم تصح ـ إلا بعد استغاثة خزاعة من عدوان بني بكر بن وائل وقريش. ويروي أصحاب السير، وبعض أصحاب السنن أن النبي ﷺ قال لعمرو بن سالم: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم»؛ أو قال له: «لا نُصِرتُ إن لم أنصركم».

كان وفاء المسلمين ـ فيما أحبوا وكرهوا ـ بما أوجبه عليهم عهد الحديبية، أمرًا لا مراء فيه ولا تردد، ولكن قريشًا لم تف بعهدها لرسول الله ﷺ ونقضته في معونتها بني بكر بن وائل على خزاعة، فانتهى بذلك أمر الحديبية وهدنتها وشروطها كلها.

وكذلك الحال في كل عقد إذا نقضه طرف أصبح الطرف الآخر في حلٍّ منه، وأصبح استمساكه به ضعفًا وهوانًا لا يجوزان في شرع ولا عقل(!)

فلما أدركت قريش خطورة نقضها عهد رسول الله ﷺ أرسلت أبا سفيان إلى المدينة، في محاولة لإعادة حرمة العقد الذي أهدرته قريش إلى أصلها. فلقي أبا بكر، وعمر، وعلي، يرجو من كل منهم أن يشفع له عند رسول الله ﷺ فأبوا. ونصحه علي أن يعود من حيث جاء قائلًا له: «إن رسول الله ﷺ قد عزم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه». فعاد أبو سفيان إلى قريش يخبرهم بإخفاقه وبأن أمرًا جللًا أصبح وشيك الوقوع، وأمر النبي ﷺ أصحابه بالتجهز للخروج، وأعلمهم أنه يريد مكة، وأوصاهم بحسن الاستعداد والتعجل فيه. وأدرك المسلمون أن

الساعة الفاصلة مع أهل مكة قد دنت فأعدوا لهذا اللقاء أحسن ما يستطيعون من عدة وعتاد.

وابتلي المسلمون في هذه الأثناء بحادثة غريبة إذ تطوع حاطب بن أبي بلتعة، من المهاجرين البدريين أهل السابقة في الإسلام، بالكتابة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، وأوحي صنيعه هذا إلى رسول الله ﷺ فبعث عليًّا والزبير والمقداد، رضي الله عنهم، في أثر حاملة الخطاب، وهي جارية لحاطب، فأخذوه منها، وأتوا به رسول الله ﷺ؛ فدعا حاطبا وسأله ما هذا يا حاطب؟ فقال لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأ مُلْصقا في قريش، وكان من معك من المهاجرين لهم فيها قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

قال النبي ﷺ أما إنه قد صدقكم! فقال عمر: يا رسول الله لقد نافق فدعني أضرب عنقه(!)

فرد عليه النبي ﷺ قائلًا إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ونزل في ذلك قرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الممتحنة: ١).

لقد كان هذا درسا عظيما للمسلمين، بل للبشرية كلها، أن صاحبَ الفضل والسابقة إذا أخطأ لا يجوز أن ينسى فضله، وتسقط سابقته، بخطئه، بل يَشْفَعُ الماضي للحاضر، فيقالُ من عثرته، ويذكره إخوانه بأفضل ما فيه، لئلا ينسى المؤمنون الفضل بينهم.

□

أعد رسول الله ﷺ جيشه من أهل المدينة ومن حولها من قبائل المسلمين: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وغيرهم فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق. فكان مجموع الجيش بين عشرة آلاف واثني عشر ألفا، وكان خروجه لعشر خَلَوْنَ من رمضان من السنة الثامنة من الهجرة. وكان أهل مكة، منذ رجع أبو سفيان من المدينة، يخرجون إلى طريق المدينة يحاولون تعرف الأخبار، والتقاط ما يتناقله أهل البادية عن الجيش القادم إلى مكة، حتى كانت ليلة خرج فيها أبو سفيان وبُدَيلُ بن ورقاء وحكيم بن حِزَام يتحسسون الأخبار، فرأوا نيرانا هائلة غير بعيدة منهم؛ فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. فقال بُديلُ بن ورقاء هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، يشير إلى ما كان من أمر بني بكر وخزاعة، فقال أبو سفيان خزاعةُ أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

وفجأة عثرت طلائع جيش النبي ﷺ على هؤلاء الرجال فأخذتهم إلى رسول الله ﷺ، ولحقهم العباس يعلن أنهم في جواره(!) فلما جلسوا إلى النبي ﷺ حادثهم عامة الليل فانشرحت صدورهم للإسلام وأسلموا؛ ثم سألوه الأمان لقريش فقال:

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، وفي رواية ومن ألقى السلاح فهو آمن.

هذه المزية لأبي سفيان أرضاه بها رسول الله ﷺ، وهي لا تضر أحدا، ولا تكلف جهدا ولا على النبي ﷺ أن يحبب إليه، بمثل ذلك، نفسا كانت إلى الأمس القريب مشركة معادية، لتصبح مؤمنة مناصرة مسالمة. وأوصى النبيُّ ﷺ العباسَ أن يوقف أبا سفيان بمضيق الوادي المؤدي إلى مكة لتمر به القبائل ويرى عدد الجيش وعدته. قال ابن عباس: فجعلت تمر به القبيلة فيقول لي يا عباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة، فيقول ما لي ولمزينة(!) وأقول سُليم فيقول ما لي ولسليم(!)

فلم تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته قال لي ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحَدَقُ من الحديد، فقال سبحان الله يا عباس(!) من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة(!) والله، يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، قال العباسَ: يا أبا سفيان إنها النبوة فقال أبو سفيان: فنعم إذن. وأسرع أبو سفيان إلى مكة، وهو يشعر أن خلفه إعصارا إذا انطلق اجتاح ما أمامه، فصاح بقريش هذا محمد قد جاءكم لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما يغني عنا دارك؟ قال ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى أصحابه عن البدء بالقتال، ولكن سعد بن عبادة، زعيم الأوس، ذكر ما فعله أهل مكة بالمسلمين، فصاح: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا»!!

فرد رسول الله ﷺ، فيما يروى، قائلا: «بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا» وأمر بنزع اللواء من سعد وإعطائه لولده مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس.

وقاتل نفر من المشركين يقودهم عكرمة بن أبي جهل، وفيهم سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وحماس بن خالد من بني بكر، ولكن الجيش الذي كان يقوده خالد بن الوليد دهمهم فلاذوا بالفرار(!)

ودخل رسول الله ﷺ مكة فطاف على الأصنام يلقيها على الأرض، صنما صنما، وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا». ثم أمر بالكعبة ففتحت ومحا ما كان فيها من الصور ورأت قريش دينها الباطل يتهاوى أمام أعينها

وهي لا تملك لآلهتها نصرا ولا منعا، وأذَّنَ بلالٌ فوق ظهر الكعبة فلم تملك شياطين الشرك والكفر، من الإنس والجن، إلا أن تُدْبِرَ هاربةً أو تقبل مؤمنة طائعة.

□

عندما أمر رسول الله ﷺ بالكعبة ففتحت رأى الصورَ تملؤها من داخلها وفيها صورتان يزعم المشركون أنهما لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستقسمان بالأزلام، فقال رسول الله ﷺ سخطا على المشركين: «قاتلهم الله(!) والله ما استقسما بها قط». وأمر بتلك الصور كلها فمحيت من داخل الكعبة، وأصبح البيت الحرام خالصا للتوحيد: فالتماثيل التي كانت أصناما مقدسة تعبد، أو يتقرب بها إلى الله، عادت إلى أصلها ترابا وحجارة بعد أن هدمها نبي التوحيد وهو يتلو القرآن. والصور التي صنعها أهل الشرك داخل الكعبة أصبحت أثرا بعد عين، ويروي أهل السير أن رسول الله ﷺ خطب يومئذ أهل مكة فقال لهم ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال إنما أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي الذين لن يأسروا.

وروى أحمد، والبخاري في صحيحه، وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم الفتح: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، يا معشر قريش ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟» قالوا نقول خيرا ونظن خيرا نبي كريم وأخ كريم، وقد قدرت. فقال لهم مقالته السابقة فخرجوا، كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام. وتلا عليهم رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣). وقال لهم «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله، لم تحل لأحد كان قبلي، ولن تحل لأحد كائن بعدي». وذكر مظاهر الحرمة، وأن المسلم أخو المسلم،

وأن المسلمين إخوة، وهم يد على من سواهم، وحرم زواج المرأة على عمتها وخالتها، وبين أساس الحكم بالحقوق فقال: «والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر».

وكان من حديث فتح مكة، كما يروي أهل السير، أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل رسول الله ﷺ يوم الفتح، وهو يطوف بالبيت، فناداه رسول الله ﷺ وقال أفضالةَ قال نعم. قال ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال لا شيء.. كنت أذكر الله، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال استغفر الله. أطلعه على خبيئة نفس فضالة رَبُّ العالمين ففضحها له فأسلم وحسن إسلامه. ودخل ﷺ الكعبة في نفر من أصحابه فمكث فيها مدة من الزمن، وكبر في زواياها وأرجائها، وصلى ركعتين، وحمد الله تعالى قبل أن يخرج إلى قريش ويخطب فيهم خطبته يوم الفتح. ثم لما خرج من البيت الحرام صلى ركعتين قِبَلَ الكعبة وقال هذه القبلة.

وقال جماعة من الأنصار عندما رأوا رسول الله ﷺ يرفع يديه بحمد الله ويذكره ويدعو ما شاء الله له أن يدعو، قالوا أمَّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته. فجاءه الوحي بذلك، فقال يا معشر الأنصار قلتم كذا وكذا؟ قالوا قد قلنا ذلك يا رسول الله. قال كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون والله يا رسول الله ما قلنا ذلك إلا ضنًا بالله وبرسوله، فقال لهم فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدِّقانكم، وبايع الرسولُ ﷺ الناس يومئذ على الإسلام، وجاءه الصغار والكبار والرجال والنساء، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ومنذ يوم الفتح الأكبر في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة أصبحت مكة المكرمة عاصمة الإسلام لا يفارقها ولا تفارقه، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

* * *

غزوة تبوك

اختلف رواة السيرة في سبب غزوة تبوك، وهي مدينة معروفة إلى اليوم، بينها وبين المدينة المنورة نحو ٧٠٠ كم. وهي في منتصف المسافة بين المدينة وبين دمشق.

وأشبه ما قيل في هذه الغزوة بالصواب هو أن أنباء ـ غير صحيحة ـ بلغت رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة تقول إن الروم قد جمعت بالشام جموعا من جندها، أعطاهم هرقل نفقة سنة، وخرجت معهم لحرب المسلمين بعض قبائل العرب الموالية للروم في شمال الجزيرة العربية.

فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ندب الناس للخروج لملاقاة الروم.

ووجد يهود المدينة الفرصة سانحة للتخلص من رسول الله ﷺ وهزيمة الإسلام، فأخذوا يشيعون خبر جموع الروم في المدينة، ويقولون للنبي ﷺ إن كنت صادقا فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء، فلما بلغ المسلمون تبوك نزل في اليهود قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٦، ٧٧).

كان الزمان زمان حر شديد، وجدبٍ، وكانت بالناس ضوائق؛ وحين ندبهم

رسول الله ﷺ للخروج كانت الثمار قد طابت ودنا قطافها والناس يحبون الإقامة في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الخروج، ولذلك سمي جيش تبوك جيش العُسْرَةِ لأنه خرج في أيام شدة ونقص من الأموال. وسميت الغزوة أيضا بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين الذين أرجفوا في المدينة بهزيمة المسلمين ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، ولأن ما نزل فيها من القرآن فضح اليهود وسوء مكرهم بالنبي ﷺ.

وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج في هذه الغزوة كما لم يدعهم في غيرها، حتى إنه بعث إلى قريش في مكة يندبهم للخروج، فكان قوام جيشه ثلاثين ألفا. وصَرَّحَ بمقصده وكان قلما يفعل إذا أراد الغزو، بل كان يوري ولا يصرح. فاستجاب له من استجاب وهم يعرفون ما هم مقدمون عليه من شدة ونَصَبٍ، ومن عدو شديد المراس قوي الشكيمة. وتخلف قوم فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٣٨).

واستأذن قوم بأعذار كاذبة أبدوها لرسول الله ﷺ ففضحهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٤٩، ٥٠).

وكان النبي ﷺ يجلس على المنبر كل يوم، في أثناء تجهيزه جيش العُسرة، ويدعو الله بدعائه يوم بدرٍ «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض بعد اليوم».

وفي سبب تسميته هذه الغزوة «غزوة العسرة» وتسمية جيشها «جيش العسرة» نقرأ في تفسير المنار أن: «العُسرة هي الشدة والضيق. وقد كانت عسرة في الزاد،

إذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدَت فيه مؤنتهم من التمر، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد» فكان الناس بين فقير لا يكاد يجد قوته وبين ذي مالٍ يحب أن يقيم فيه كما تقدم. «وعسرة في الظهر ـ أي في الدواب ـ حتى كان العَشَرةُ يعتقبون ـ أي يركبون بالتوالي ـ بعيرًا واحدًا. وعسرة في الزمن إذ كانت في حمَّارة القيظ ـ أي أصعبه ـ وشدة الحر» فكان التعبير بـ«ساعة العسرة» تذكيرًا أبديًّا بذلك كله.

وفي ظل هذه الصعوبات الهائلة، والمثبِّطات المتكاثرة، ظهرت معادن عدد من الصحابة، رضي الله عنهم، فيما صنعوا لتجهيز ذلك الجيش.

□

عند الشدائد تتبين حقائق المعادن البشرية، وذلك ما كان من أصحاب النبي ﷺ عند دعائه لتجهيز جيش العسرة.

فجاء عاصم بن عدي بسبعين وسقا من تمره (والوسق حمل البعير).

وجاء العباس وطلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة وعبد الرحمن بن عوف، جاء كل منهم بمائتي أوقية من فضة.

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، فسأله رسول الله ﷺ ماذا تركت لعيالك؟ قال تركت لهم مثل الذي جئت به. وجهَّزَ عثمان رضي الله عنه ثُلُثَ الجيش، لم يُبْق لهم حاجةً إلا جهزهم بها، روي أنه أنفق على جيش العسرة ألف دينار غير مائة من الإبل بركابها وما يكفيها ويكفي المجاهدين عليها من الزاد وغيره من الحاجات. وجاء بألف من الدنانير فصبها في حجر رسول الله ﷺ فجعل يقلبها بيده ويقول: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم(!) يرددها مرارا». وتبرع عثمان أيضًا بقافلة ـ كان قد جهزها إلى الشام فيها مائتي بعير، ومائتي أوقية من الفضَّة وكثرت صدقاته في تلك الغزوة حتى قيل إنها بلغت تسعمائة بعير ومائة فرس

سوى النقود من الذهب والفضة، فاستحق بذلك تلك البشارة النبوية العظيمة: أنه لن يضره شيء يعمله بعدها.

وجاء أبو بكر رضي الله عنه بماله كله ـ أربعة آلاف درهم ـ وكان أول من جاء بصدقته للجيش، فقال له رسول الله ﷺ هل أبقيت لأهلك شيئا؟ فقال أبقيتُ لهم الله ورسوله. فلهذا، ولمواقفه الفذة الأخرى، لم يفضل عليه الصحابة أحدًا ولم يقارنوا به أحدًا.

في حال العسرة تلك، لم يكن كل الناس قادرا على تجهيز نفسه، فضلا عن أن يجهز معه غيره. ولم يكن المال الذي حمل إلى رسول الله ﷺ كافيا لتجهيز كل من أراد الخروج. ففي صحيح البخاري أن أبا موسى الأشعري أتى النبي ﷺ مرسلًا من أصحابه يطلب منه أن يوفر لهم دواب الركوب ليخرجوا في الجيش مع رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه، ثم توافر للنبي بعد ذلك بعض الدواب فأرسل إلى أبي موسى، وأعطاه إياها، وقال له قل لأصحابك: إن الله ـ أو إن رسول الله ـ يحملكم على هؤلاء فاركبوهن. وقال ﷺ: «إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفَّرتُ عن يميني وأتيت الذي هو خير».

ومن ذلك أن نفرًا سبعةً جاءوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم، أي يجهزهم بجهاز الخروج في الجيش، وكل منهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله ﷺ فقال لهم رسول الله ﷺ لا أجد ما أحملكم عليه، وكان من هؤلاء علبة بن زيد الذي خرج من الليل فصلى ما شاء الله تعالى ثم بكى وقال اللهم إنك أمرتنا بالجهاد ورغَّبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابتني من مال أو جسد أو عرض. فلما أصبح الناس ـ وهو معهم في المسجد ـ قال رسول الله ﷺ أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم أحد. فقال أين

المتصدق فليقم. فقام إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منه؛ فقاله له: «أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة».

ولما خرج هؤلاء النفر السبعة من عند رسول الله ﷺ وهم يبكون، بعد أن أعلمهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه لقي يامين بن عمرو النضري (وهو من يهود المدينة) رجلين منهم وهما يبكيان فقال ما يبكيكما؟ قالا جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج، ونحن نكره أن تفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ، فأعطاهما بعيرا له، وزود كل واحدٍ منهما صاعينِ من تمرٍ، وحمل العباس بن عبد المطلب من البكائين رجلين، وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذي جهز من الجيش.

وفي هؤلاء نزل القرآن ينفي عنهم الحرج فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة: ٩١، ٩٢).

□

وتخلف عن الخروج في غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ رجال معدودون، إيمانهم صحيح ليس بهم شك ولا ارتياب، وهؤلاء هم كعب بن مالك الخزرجي، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، وأبو خيثمة السلمي، وأبو ذر الغفاري.

فأما أبو خيثمة فقد دخل في يوم حار على أهله فوجد ظلا ظليلا، وماء مرشوشا على الأرض، وماء مبردا لشرابه، وطعاما حسنا قد هيئ له، فقال: سبحان الله(!) رسول الله ﷺ في الضِّح (أي شدة الشمس) والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسنة في ماله مقيم؟! ما هذا

بالنصف(!) ثم أمر بزاد أن يعد له، وارتحل على جَمَلِه يطلب رسول الله ﷺ، فأدركه حين نزل بتبوك، وأخبره خبره، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

وأما أبو ذر فكان بعيره أعجف ضعيفا، عندما دعا رسول الله ﷺ إلى الخروج، فقال يَعْلِفُه أياما ثم يلحق برسول الله ﷺ، فلما خرج عجز البعير عن السير، فأراحه يوما فلم ير به قوةً، فأخذ متاعه من عليه وحمله على ظهره، وسار على قدميه يطلب رسول الله ﷺ؛ فنظر ناظر من المسلمين وقد انتصف النهار فرأى شبحا يدنو منهم فقال: يا رسول الله هذا رجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر»(!) فلما تبينوا ملامحه قالوا يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة أمة وحده». فلما بلغ منزل رسول الله ﷺ وأخبره الخبر قال: «قد غفر الله لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنبا إلى أن بلغتني».

واشتدت حاجة الناس إلى الماء في الطريق، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله أن يسقيهم، فلم ينته من دعائه حتى أمطرت السماء وارتوى الناس، واحتملوا ما يحتاجونه من الماء؛ فنظر بعض الصحابة فلم يجد الماء إلا في مواضع تجمع الجيش دون سواها (!)

ولم يلق رسول الله ﷺ كيدا في تبوك لأن الروم لم يلقوه بها، بل كانت جيوشهم بعيدة عنها، قيل لأنهم كرهوا لقاء المسلمين فتفرقت جموعهم، وقيل لم يكونوا تجمعوا للحرب أصلا، والله تعالى أعلم.

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة في رمضان من السنة التاسعة للهجرة، وكان قد خرج في رجب منها، ومن أجل دخوله في رمضان وبدء قصة الذين خُلِّفوا فيه جعلنا تبوك وقصتها بين الأيام الرمضانية.

وكان الذين تخلفوا عن رسول الله بضعة وثمانين رجلا من المنافقين، أَذِنَ النبي ﷺ لهم في القعود، من غير علة حقيقية كانت بأحد منهم.

وتخلف رجال لا يشك في إيمانهم، ذكرت منهم آنفًا أبا خيثمة وأبا ذر رضي الله عنهما، اللذين لحقا برسول الله ﷺ في تبوك أو في الطريق إليها، ونلخص الآن خبر الثلاثة الذين لم يلحقوا به، وبقوا في المدينة حتى رجع إليها النبي ﷺ من تبوك.

كان هؤلاء هم كعب بن مالك السلمي، وهلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع العامري. لم يكن لهم في التخلف عن رسول الله ﷺ عذر، ولم يسمح لهم إيمانهم الصادق أن يكذبوا على رسول الله ﷺ فأقروا له بخطئهم عند رجوعه من تبوك، فأرجأهم حتى يحدث في أمرهم وحي يوحيه الله إليه. وكان من نبأهم ما حكاه كعب بن مالك من أنه أتى رسول الله ﷺ فسلم عليه، وجلس «فتبسم تبسم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خَلَّفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك (الدابة التي ستركبها) فقلت: بلى والله (!) إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، وقد أعطيت جدلا (قوة في الحجة وقدرة على النقاش) ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه (أي لا تكون عني راضيا) إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك». وقال رسول الله ﷺ أمَّا هذا فقد صدق(!) فقم حتى يقضي الله تعالى فيك ما يشاء.

وعاتبه رجال من قومه أنه أقر بذنبه فسألهم هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا نعم: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وهما بدريان صالحان، عندئذٍ قال كعب بن مالك: فيهما أسوة.

□

وقيل في سبب تخلف مُرارة بن الربيع العامري إنه كان له بستان قد ظهرت

ثماره فأعجبته، فقال لنفسه لقد غَزَوتُ قبلها فلو أقمت عامي هذا؟! فلما تذكر ذنبه بعد عودة رسول الله ﷺ من تبوك تصدق ببستانه هذا، وقال: اللهم إني أشهدك أني تصدقت به في سبيلك.

وقيل في سبب تخلف هلال بن أمية الواقفي إنه كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا فقال: لو أقمت عندهم هذا العام. فلما تذكر ذنبه عندما عاد النبي ﷺ إلى المدينة، قال: اللهم لك عليّ ألا أرجع إلى أهلي ولا مالي (يعني إن دعيت للخروج بعد ذلك).

قال كعب: ونهى رسول الله ﷺ عن أن يكلمنا نحن الثلاثة (أي هو وهلال ومرارة) أحد، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، وتنكرت لنا الحيطان (البساتين) حتى ما هي بالتي نعرف، وما من شيء كان أهم إليّ من أن أموت، فلا يصلي رسول الله ﷺ عليّ، أو يموت، فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد ولا يصلي عليّ.

وبعد أربعين ليلة أمر رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم. قال كعب بن مالك: ومكثنا على ذلك عشر ليالٍ: فكملت مدة مقاطعتهم فبلغت خمسين ليلة. وقال كعب: كنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف الأسواق فلا يكلمني أحد.

وقصة هؤلاء الثلاثة طويلة، مؤثرة، مبثوثة في كتب التفسير والسيرة والحديث؛ ونزلت بعد خمسين ليلة توبة الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٧، ١١٨).

قال كعب بن مالك: وكان تخلفنا عن أمر الذين قَبِلَ النبي ﷺ أعذارهم حين حلفوا له هو الذي عناه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ (التوبة: ١١٨). ولم يكن المراد بذلك تخلفنا عن الغزو بل تخليف النبي ﷺ إيانا، وإرجاءه أمرنا بخلاف من حلف له كذبًا، واعتذر إليه فقبل ﷺ منه ظاهره ووكل باطنه إلى الله عز وجل.

* * *

إن الغاية الحقيقية من غزوة تبوك كانت إرهاب الروم الذين كانوا يتحينون الفرص لمهاجمة المدينة والقضاء على الإسلام وقوته الناشئة ودعوته التي تنشر في بقعة بعد أخرى من بقاع الجزيرة العربية. فأراد النبي ﷺ أن يقطع طمع الروم في غزو المسلمين، وأن يوقع اليأس في نفوسهم من اعتبار المسلمين لقمة سائغة أو غنيمة باردة، فإن مَنْ هذا شأنه لا يتقدم بجيوشه إلى حدود هذه الإمبراطورية، ويدخل متحديا متهددا مستعدًّا لقتال جيوشها.

تلك العلة الحقيقية ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ١٢٣). وقد تحققت هذه الغاية فلم يقابل الروم رسول الله بجيش مقابل جيشه، بل كان هناك نوع انسحاب منهم، إلى داخل بلادهم، يدل على أنهم عملوا حسابا جديدا لهذه القوة الناشئة، لم يحسبوه للعرب من قبل.

وكان من غاية تبوك إشعار القبائل العربية التي لم تدخل الإسلام، وبوجه خاص القبائل الموالية للروم، بقوة الإسلام وبأن الروم لن يغنوا عنهم شيئا إذا فكروا في حرب المسلمين. وقد أشار القرآن إلى هذه الغاية بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٢٠).

وتحققت هذه الغاية، كذلك، فلم يلق المسلمون حربًا من تلك القبائل بعد تبوك.

* * *

معركة البويب

البويب موضع قريب من الكوفة به مصبُّ نهر صغير، هو قناة تصريف لنهر الفرات، يصب أيام فيضانه في منطقة الجوف. وفي هذا الموضع، في رمضان سنة ١٣هـ، وقعت موقعة «البويب» التي يصفها بعض المؤرخين بأنها أول يوم انتصف فيه المسلمون من الفرس. فقد كانت الحرب بين المسلمين والفرس حربًا طويلة ممتدة.

وفي مرحلة من مراحل تربص كل من الفريقين بالآخر، واستعداده لمواجهته، توافت الأمداد التي بعثها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى المثنى بن حارثة، قائد جيوش المسلمين، إلى البويب. وعلم الفرس بكثرة جموع المسلمين فأعدوا جيشا، قوامه الفرسان، يقوده مِهْران بن باذان الهمذاني (وقد كان نشأ مع أبيه في اليمن، إذ كان عاملا لكسرى هناك، وكان يجيد العربية).

وتحرك مهران بجيشه من المدائن متجها إلى الحيرة، ووصل خبر هذا التحرك إلى المثنى بن حارثة وهو بموضع يقال له «مرج السباخ» بين القادسية وخَفَّان. فقدَّر المثنى أنَّ زحف الفرسان سيكون سريعا، فخرج من فوره يريد البويب؛ وكتب إلى جرير بن عبد الله البجلي الذي كان على رأس مدد كبير آت من المدينة: «إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب».

وصدق حَدْسُ المثنى، إذ وجد بحذائه من وراء الفرات مِهران بن باذان وجيشه، وكان جيش المثنى مكونا من ثمانية آلاف فارس وراجل، كلهم لم يقاتلوا الفرس من قبل، وفيهم من كان قد ارتد عن الإسلام ثم ندم وتاب وحسن إسلامه، فجاء مدفوعا بالرغبة في التقرب إلى الله والتكفير عن ردته، كأن الواحد منهم كان يقول لنفسه: لئن كنت قاتلت دين الله قبل عامين فلا أقل من أن أنصره اليوم. وكذلك تفعل التوبة الصادقة في ذوي المعادن الأصيلة من الناس.

ونظر المثنى إلى الضفة الأخرى من الفرات حيث مِهرانُ وعسكره، وسأل رجلا من أهل العراق ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره فقال «بسوسيا» فقال المثنى: هَلَكَ مِهران نزل منزلا هو البسوس (وهي امرأة من العرب هاجت بسببها الحرب أربعين سنة في الجاهلية بين حيين من العرب فضُرِبَ بها المثل في الشؤم، فقيل: أشأم من البسوس!).

وأقام المثنى بجيشه ممتثلا لأمر كان عمر رضي الله عنه قد أمره به: ألا يعبر المسلمون بحرا ولا جسرا إلا بعد نصر. وأكد عنده وجوب امتثال هذا الأمر أنه قد كانت للمسلمين غلطة، قبل شهر واحد من معركة البويب، كلفتهم كثيرا، تلك هي معركة الجسر، التي كانت في شعبان سنة ١٣ هـ، وهزم فيها المسلمون هزيمة غير جميلة لأنهم تعجلوا عبور الجسر، في منطقة تسمى المروحة، فأحدق بهم الفرس وهزموهم هزيمة منكرة.

ولما طال مقام الفريقين كتب مِهرانُ إلى المثنى: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم. فرد عليه المثنى «بل اعبروا». فعبر الفُرسُ ومعهم ثلاثة أفيال؛ وقام المثنى خطيبا في جيشه فقال لهم: «إنكم صُوّام وإن الصوم مُرِقَّةٌ مُضْعِفَةٌ (أي لا يجعل في الصائم جلدًا على الحرب) وإني أرى أن تفطروا ثم تَقْوَوا بالطعام على قتال عدوكم». فأفطروا، فأخذ يمر على الصفوف ويسويها كصفوف الصلاة، ويحفز المسلمين على القتال، ويحضهم على الثبات أمام العدو، ويذكرهم الدار الآخرة

ونعيم الجنة. وامتطى المثنى بن حارثة فرسه المعروف باسم «الشموس» وهو فرس مشهور كان لا يركبه إلا للقتال، فوقف على جموع المسلمين، جمعًا جمعًا، يقول لكل منهم: إني لأرجو ألّا تؤتى العرب اليوم من قبلكم. والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم. فيجيبونه بمثل ذلك. وأنصفهم في القول والفعل، وشاركهم في المكروه والمحبوب، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولا ولا عملا ورضيَ الجمع كله قيادته، وأثنى القريب والبعيد على سياسته.

□

تراءى الجمعان، فقال المثنى لجنوده: إني مكبر ثلاثًا فتهيأوا، ثم احملوا مع الرابعة(!)

ولكن الفرس لم يُمهلوا المسلمين حتى تتم التكبيرات، بل عاجلوهم بعد أول تكبيرة، وأقبلوا نحوهم في ثلاثة صفوف، مع كل صف فيلٌ أمام المشاة، ولم يكن الصف مفردا بل كان كثيفا متعدد الأفراد. وأخذ الفرس يصيحون ليلقوا الرعب في قلوب المسلمين، فأدرك المثنى ذلك، فقال للمسلمين بسرعة: «إن الذي تسمعون فشل (يعني جعجعة بلا طحن) فالزموا الصمت وائتمروا همسا(!)». تلك كانت الخطة المقابلة لإلقاء الرعب، بالصمت، في نفوس الفرس. إذ لا بد أن يقع في قلوبهم أن المسلمين لا يصمتون، بإزاء صياحهم الجنوني، إلا لأمر عظيم يخبئونه لعدوهم، ولا يظهرونه إلا لحظة الالتحام.

وهكذا كان، فالتحم المسلمون والفرس مدة طويلة، ورأى المثنى خللا في بعض الصفوف فأرسل إليهم رجلا يقول لهم: إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: «لا تفضحوا المسلمين اليوم». فقالوا نعم(!). واعتدلوا، واعتنوا بأمر، لم يعن به سواهم يومئذ، وهو مراقبة المثنى والحمل معه على الفرس كلما حمل عليهم، وأبلوا في ذلك بلاء عظيمًا.

ولم يكن جيش الفرس بالعدو الهيّن، بل طال القتال بينهم وبين المسلمين،

واشتد، فقال المثنى لرجلين من المسلمين إذا رأيتماني حملت على مِهران فاحملا معي. فحمل عليه المثنى فأزاله عن موضعه، منهزمًا، حتى أدخله في ميمنة الجيش. وضغط المسلمون مع قائدهم فخالطوا عدوهم، واجتمع قلبا الجيشين، واختلطت الميمنتان والميسرتان، فلم يفزع الفرس ـ لشدة القتال ـ لنصر أميرهم مهران، ولم يستطع المسلمون أن ينصروا أميرهم المثنى فاستمر الالتحام بين الجيشين زمنًا غير قليل.

وكان قائد مشاة المسلمين هو مسعود بن حارثة، أخا المثنى، فقال لجنده: «إن رأيتمونا أُصِبْنا فلا تَدَعَوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينتصف (أي يهزم عدوه). الزموا مصافَّكم (أي أماكنكم التي تقاتلون فيها) وأغنوا غناء من يليكم».

وأصيب مسعود بن حارثة، وقواد كبار من المسلمين، ورأى تَضَعْضُعَ الصفِّ من خلفه لإصابته وقد أثقلته الجراح فصاح بهم: «يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم، رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعي (أي لا يعظم عليكم)». وعلى الرغم من اشتداد المعارك، وجلبة السلاح، فقد سمع المثنى بن حارثة صوت أخيه مسعود، فخاطب الناس بقوله: «يا معشر المسلمين لا يروعكم مصرع أخي، فإن مصارع خياركم هكذا». فكانت سنة حسنة: ألا يؤثر استشهاد أحد ـ كائنًا من كان ـ في عزيمة الجيش وصبره وثباته.

وعلى الرغم من هذه الإصابة الكبيرة فقد استمر ضغط المسلمين على جيش الفرس حتى قتل مِهران قائد الجيش، وقتل قائد الفرسان شهربراز، واستمر القتال حتى أفنى المسلمون جنود قلب جيش الفرس، وانفصلت الميمنة من جيشهم عن الميسرة، وبدأت كلتاهما تهتز لكثرة القتل في الفرس. ووقف المثنى في القلب بينهما ومعه رجال يبتهلون إلى الله ويسدون أي ثغرة تبدو في موضع من مواضع قوات المسلمين. وجعل المثنى يرسل إلى ميمنة المسلمين وميسرتهم من يقول لهم: «إن المثنى يقول لكم: هكذا عاداتكم في أمثالها. انصروا الله ينصركم»؛ حتى

هزم الفرس، وأخذوا في الفرار يريدون عبور النهر من فوق الجسر إلى الناحية الأخرى. فسبقهم المثنى فيمن معه إلى الجسر، ليمنع عبورهم، وجالت فيهم خيول المسلمين إلى الليل، ومن الغد إلى الليل حتى أبادوهم؛ فما كانت بين العرب والعجم موقعة أبقى أثرا منها.

قال المثنى بن حارثة: «قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمئة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألف من العرب، ولمئةٌ اليوم من العرب أشد عليَّ من ألف من العجم. إن الله أذْهبَ مصدوقتهم (أي صدق حملتهم في الحرب على عدوهم) ووهَّن كيدهم فلا يرد عنكم زهاء (منظر) ترونه ولا سواد (كثرة) ولا قيسيٌّ فُجٌّ (جمع قوس فجَّاء أي بعيد وترها عن كبدها، وهو دليل جودتها) ولا نبالٌ طوالٌ، فإنهم إذا أعجلوا عنها، أو فقدوها، كالبهائم أينما وَجَّهتموها اتجهت(!)».

وانتهت المعركة بنصر مؤزر للمسلمين على عدوهم.

* * *

فتح الإسكندرية

بعد أن فتحت جيوش المسلمين، بقيادة عمرو بن العاص، مصر، وعسكرت في الفسطاط، وسيطرت على ما والاها من البلاد، كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، يطلب منه الإذن له بالتوجه نحو الإسكندرية لفتحها بعد أن كان حصن بابليون قد سقط في أيدي المسلمين. فكتب إليه عمر يأذن له بذلك.

واستخلف عمرو بن العاص على ما فُتِحَ من أرض مصر خارجَةَ بن حُذافة السهمي، وسار بالمسلمين يريد الإسكندرية. وخرج معه جماعة من رؤساء القبط بعد أن كان المسلمون قد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وأصبح القبط أعوانا لهم على ما أرادوا من قتال الروم. وسمعت الروم بذلك فاستعدت، واستقدمت المدد من بلاد الروم بسفن عظيمة عبرت البحر المتوسط إلى الإسكندرية.

وخرج عمرو من حصن بابليون متوجها إلى الإسكندرية فلم يلق من الروم أحدا حتى بلغ بلدة يقال لها «ترنوط» فلقي بها طائفة من الروم قاتلوه قتالا خفيفا،انتهى بهزيمتهم، فمضى عمرو بمن معه من المسلمين والقبط إلى بلدة يقال لها «كوم شريك» فلقي بها جمعا من الروم، فاقتتلوا ثلاثة أيام ثم فتح الله على المسلمين وولى الروم أكتافهم هربا. ثم تتالت المواقع بين الروم والمسلمين فاقتتلوا بسلطيس

جنوبي دمنهور. وهزم المسلمون الروم واستولوا على حصن سلطيس. ثم التقوا في كريون شمالي دمنهور وكان فيها آخر حصن من الحصون التي بين بابليون والإسكندرية، فتحصن الروم فيه، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدا دام بضعة عشر يوما انتهت بنصر المسلمين، وولَّى الرومُ الأدبارَ حتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وقد أصيب عبد الله بن عمرو بن العاص في هذه المعركة بجراحات كثيرة فلما جاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه قال:

أقول لها إذا جشأت وجاشت

رويدك تحمدي أو تستريحي

فلما بلغ ذلك عمرًا قال هو ابني حقا(!)

وقد قطع عمرو والمسلمون معه ما بين بابليون حتى الإسكندرية في نحو ستة أشهر، وأقاموا في حصار الإسكندرية نحو ثلاثة أشهر.

كانت الإسكندرية ثانية عواصم الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وكانت أول مدينة تجارية في العالم. وكانت عاصمة لمصر، منذ أنشأها الإسكندر الأكبر ما بين سنتي ٣٣٢ و٣٣١ قبل الميلاد. لذلك اعتنى بها الرومان عناية خاصة، فحصنوها ضد غارات المغيرين وهجمات الفاتحين. وكان المدد يتدفق عليها من إمبراطور الروم، وفيها حامية لا تقل عن خمسين ألف جندي مزودين بالمؤن الوفيرة. وكانت قوات عمرو بن العاص ضئيلة إذا قورنت بعدد الروم في المدينة، ولذلك كان عمرو بن العاص يستخدم خبرته العسكرية ودهاءه الفطري، في مواجهة الروم. فيروي المؤرخون أن جماعة من قوات الروم خرجوا من حصن الإسكندرية وحملوا على المسلمين حملة شديدة، فقتلوا رجلا منهم واحتزوا رأسه، وعادوا بها إلى الحصن. فغضب قومه ـ وكانوا من أهل اليمن ـ غضبا شديدا، وأبوا أن يدفنوه إلا برأسه(!) فقال لهم عمرو: كأنهم يبالون بغضبكم

(يعني إن غضبهم لن يؤثر في جيش الروم شيئًا). ثم عَلَّمهم كيف يحملون الروم على رد رأس صاحبهم فقال لهم: استدرجوا القوم ليخرجوا إليكم فإذا خرجوا فاقتلوا رجلا منهم واحتازوا (يعني خذوا) رأسه، ثم ارموا بها إليهم يرمونكم برأس صاحبكم. وذلك ما كان، إذ خرج الروم فقتل المسلمون قائدًا من قوادهم، فاحتزوا رأسه ورموا به إلى الروم فرمى إليهم هؤلاء رأس صاحبهم اليمني(!)

بديهة عمرو النادرة وقدرته على درء ما يشغل جنوده عن الجهاد وعلى تذليل العقبات هي التي نفعته في هذا الموقف الذي لو تطاول به الوقت لفت في عضد جنده ووهَّن عزيمتهم وشغلهم بالشأن الخاص، قليل الأهمية، عن الشأن العام العظيم الذي انتدبهم أمير المؤمنين له .

□

عندما طال حصار المسلمين للإسكندرية أرسل المقوقس ـ الحاكم على مصر من قبل الرومان ـ إلى عمرو بن العاص يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة يتفقان عليها. فأبى ذلك عمرو، واستمر في حصار المدينة. ويعلل هذا الإباء العلامة المؤرخ أحمد عادل كمال بأن عمرا لاحظ اتصال الإسكندرية بالقسطنطينية عن طريق البحر، وأن احتمال مجيء مزيد من المدد العسكري إلى الروم عبر البحر قائم، فلم يشأ أن يعطي الروم هذه الفرصة التي يتفوقون بها على المسلمين.

ولما رأى المقوقس ذلك جمع نساء المدينة وأمرهن أن يقمن على السور مقبلات بوجوههن إلى الداخل، وظهورهن إلى الخارج، وأمر الرجال أن يقفوا في سلاحهم على السور مقبلين بوجوههم إلى الخارج، ليظهر للمسلمين أن عدد الروم أكبر مما هو عليه في الحقيقة، يريد بذلك إرهابهم(!!)

فأرسل عمرو إليه يقول: «إنا قد رأينا ما صنعت، وما بالكثرة غَلَبْنا من غَلَبْنا، فقد لقينا ملككم هرقل فكان من أمره ما كان».

قال المقوقس لأصحابه: «صَدَقَ هؤلاء القوم، أخْرَجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان». فأغلظ له أصحابه القول، واستهانوا برأيه، ونسبوه إلى الخوف من جيش المسلمين على الرغم من قلة عدده وتواضع عدتهم، وأبوا إلا المحاربة. فنزل عمرو بناحية يقال لها «حلوة» لا يعرف موضعها اليوم، ثم تحول إلى المقس (وهي منطقة المكس المعروفة اليوم) وهناك خرج عليهم فرسان الروم وهاجموهم، فقتلوا من المسلمين اثني عشر رجلا. وكانت هذه أول مواجهة بين المسلمين والروم في الإسكندرية.

وكان ملك الروم الذي خلف هرقل على مملكته يراسل المقوقس ليثبته في قتال المسلمين، ويقول لأصحابه: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم». وكان يقول في بعض رسائله إلى المقوقس: «ما بقاء الروم بعد الإسكندرية؟!».

ولذلك قرر الخروج بنفسه ليباشر القتال فيها. وأمر ألا يتخلف عنه أحد من قواده، وبينما هو يستعد لهذا القتال أدركه الموت فجأة فانكسرت بذلك شوكة الروم، ورجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية في البحر. واستبشر المسلمون بذلك خيرا، واستبسلوا في قتال الروم، وكان هؤلاء أكثر عددا وأكثر عدة فصمدوا وكان القتال شديدا مستمرا أياما طويلة لكنه انتهى بانتصار المسلمين.

وكان عمرو يتقدم جيوش المسلمين ولواؤه مرفوع بين يديه، كلما اشتد القتال كان في مقدمة المسلمين. وعلى الرغم من طول الحصار وصبر المسلمين فيه فإن أمير المؤمنين عمر أصابه القلق وساورته الريب في سبب إبطاء الفتح فبعث إلى عمرو كتابا يلومه فيه ويقول له:

«عجبت لإبطائكم عن فتح مصر (يعني إكمال فتحها بالسيطرة على الإسكندرية) إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم (يعني من المعاصي) وبما أحببتم من الدنيا ما أحب عدوُّكم. وإن الله تبارك وتعالى لا

ينصر قوما إلا بصدق نياتهم،.. فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحُضَّهم على قتال عدوِّهم ورغبهم في الصبر والنية، ومُرِ الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تَنَزُّلِ الرحمة، ووقت الإجابة، وليعجَّ الناس إلى الله، ويسألوه النصر على عدوهم».

ففعل عمرو بن العاص ما أمره به عمر ـ رضي الله عنهما ـ ففتح الله عليهم الإسكندرية بعد قتال شديد كانت الجولة فيه للروم مرة وللمسلمين مرات.

وبفتح الإسكندرية فتح الطريق لفتح إفريقية ودخول الإسلام أرضها وبقائه فيها إلى يوم الدين.

* * *

دخول الإسلام النوبة

لما فتحت مصر بعث عمرو بن العاص عُقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة ليدعوا أهلها إلى الإسلام، فلقي من أهل النوبة قتالا شديدا، ورمى أهلُ النوبة المسلمين بالنَّبْل ـ وكانوا فيه ذوي مهارة عالية ـ فكثرت إصابات المسلمين، وفقد عدد منهم أعينهم، حتى أطلقوا على أهل النوبة رماة الحَدَقِ لكثرة من أصيب من المسلمين، يومئذٍ، في عينه.

وتوالت محاولات المسلمين لدخول النوبة، لكنها استعصت على الفتح نحو عشر سنين. ثم كانت ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح لمصر في عهد الخليفة الراشد الثالث، عثمان بن عفان رضي الله عنه فغزا النوبة وقاتل أهلها، حتى سألوه الصلح والموادعة، فأجابهم إلى هدنة اتُفِقَ فيها على أن يدفع أهل النوبة إلى المسلمين، ويدفع المسلمون إلى أهل النوبة، أموالا متقابلة في كل سنة، وكان هذا الصلح في رمضان سنة ٣١ من الهجرة وبه دخل الإسلام النوبة فلم يمض إلا زمن قليل ليسلم أهل النوبة كلهم، وكان صلح عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع أهلها فتحًا حقيقيًّا أبقى من كل قتال سبقه بين النوبة وبين المسلمين.

وقد روي أن المسلمين لم يروا قوما أشد في الحرب من أهل النوبة، ولا أمهر منهم في الرمي. قال أحد المقاتلين في حصار النوبة في زمن عمر بن الخطاب: «لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمي منك؟

فربما عبث الفتى منا (أي من المسلمين) فقال في مكان كذا، فلا يخطئه النوبي»(!)

وقد خرجوا يوما إلى المسلمين بالنبل وأراد المسلمون أن يحملوا عليهم حملة واحدة بالسيوف فما استطاعوا لكثرة ما كان أهل النوبة يرمون من النبل حتى فقئت مائة وخمسون عينا، وقال المسلمون ما لهؤلاء شيء أحسن من الصلح! إن سَلَبَهُم لقليل، وإن نكايتهم لشديدة. ولكن عمرو بن العاص لم يصالحهم، بل حاول المسلمون مرات أن يفتحوا بلادهم فلم يوفقوا، فلما كانت ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه فصالحهم ـ كما تقدم ـ على ألا يقاتل المسلمون أهل النوبة ولا يقاتل أهلُ النوبة المسلمين وأن يتبادلوا الهدايا بقيمة متساوية في كل سنة.

وأورد العلامة محمد حميد الله الحيدر آبادي رحمه الله نص المعاهدة بين عبد الله بن أبي سرح وبين أهل النوبة في كتابه الفريد «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة»، ومما جاء في هذه المعاهدة تحديد مساحة النوبة وأنها من جنوب أسوان إلى أرض علوة، وأن الأمان والهدنة يجريان بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر، وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، وأنهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد ﷺ لا يحاربهم المسلمون ولا يُعِدُّون لحربهم ولا يَغْزُونَهُم، وأن لكل من الفريقين أن يدخل بلد الآخر دون أن يقيم فيها، وأن على أهل النوبة حفظ من نزل بلدهم أو مر به من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنهم، وعليهم أن يحفظوا المسجد الذي أنشأه المسلمون في مدينتهم ولا يمنعوا منه مصليا (وهو مسجد أنشأه بعض من كان يمر ببلاد النوبة للتجارة وغيرها في غير أوقات الحرب بينهم وبين المسلمين، واتخذ مع الوقت مقرًّا لكل من يدخل من المسلمين بلاد النوبة). ثم ذكرت الوثيقة الأموال التي يتبادلها الطرفان في أثناء سريان هذه الهدنة.

والأصل أن الهدنة مؤقتة وأنها قابلة للتجديد، لكن التاريخ لا يحدثنا بشيء عن تجديد العهد مع أهل النوبة، إذ إن الزمن لم يَطُلْ بهم حتى دخلوا في الإسلام جميعًا

والثابت أن المسلمين صالحوا أهل النوبة على غير جزية، وإنما على هدايا يتبادلها الفريقان، بقيم متساوية، في كل عام. وهذه المعاهدة دليل على مرونة الأحكام الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين وأنه ليس هناك شكل واحد لا يتغير للمعاهدات معهم وإنما تتغير شروطها بحسب تغير الظروف والأحوال. ووجود المسجد في بلاد النوبة، قبل الصلح بين المسلمين وبين أهلها دليل على أن المسلمين لم توقفهم العداوة، أو حال الحرب، عن العبور من أرض النوبة إلى ما وراءَها من بلاد السودان، وأنهم أمنوا الغدر والخيانة من أهل النوبة الذين لا تزال جمهرتهم تشتهر بحسن الخلق والأمانة والوفاء، وكأن ذلك من ميراث الأجداد والآباء.

* * *

فتح الأندلس

بعد أن أتم المسلمون بقيادة موسى بن نصير فتح المغرب الأقصى واستولوا على ثغر طنجة أشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر، ولم يبق أمامهم لاستكمال فتح إفريقية سوى ثغر سبتة الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي.

وكانت سبتة قد أحبطت محاولات فتحها بسبب مناعتها الجغرافية، وحرص حاكمها يوليان على الدفاع المستميت عنها. وكان موسى بن نصير يتطلع إلى فتحها على الرغم من منعتها وقوة حاكمها وجيشه، لتخلص إفريقية للحكم الإسلامي، وبينما هو يرقب الفرصة المواتية لتحقيق ذلك إذ جاءته رسالة من حاكم سبتة يعرض فيها تسليم معقلها الحصين ويدعوه إلى فتح إسبانيا، وذلك نكاية في حكام إسبانيا الذين كانوا على خلاف قديم وعداوة مستمرة مع يوليان حاكم سبتة.

استجاب موسى لهذه الدعوة، واهتم أعظم اهتمام بمشروع الفتح، لاسيما وهو كان قد وقف على أحوال إسبانيا وخصبها وغناها، وأن حاكم سبتة وحلفاءه هونوا عليه الأمر بذكر ما تعانيه إسبانيا من الخلاف والشقاق بين حكامها، وما يسودها من التحلل والضعف. وعرض يوليان تقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر والمعاونة في غزو إسبانيا بجنده وأدِلاءَ أكْفاء يعرفون دروب البلاد ويستطيعون إرشاد المسلمين في الطرق المجهولة لهم.

فكان أول نزال بين المسلمين والقوط، حكام الأندلس، في رمضان سنة ٩١ هـ إذ اجتازت حملة صغيرة البحرَ، في أربع سفنٍ قدمها إليهم حاكم سبتة، فنزلت الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس فأصابت كثيرا من الغنائم، وقوبلت على غير توقع بترحيب من أهلها وإكرام كان سببهما بغض هؤلاء لحاكمهم لذريق الذي كان ظالما قاسيا يتمتع ببغض مواطنيه الممزوج بخوفهم منه.

ثم وَلَّى موسى بن نصير طارقَ بن زياد الليثي، الذي كان حاكما لطنجة، وهو من البربر من أسرة حديثة الإسلام حتى ذكروا أنه ليس في نسبه اسمُ مسلم قبل اسم جده عبد الله، وينتهي نسبه إلى قبيلة زناتة البربرية. وكان طارق جنديا عظيما، أظهر شجاعة فائقة وبراعة هائلة في غزوات المغرب تحت قيادة موسى بن نصير، ولذلك اختاره لحكم طنجة وما حولها، وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرابا.

فلما عيَّنه موسى بن نصير قائدًا لفتح الأندلس عبر البحر من سبتة بجيشه، في سفن حاكم سبتة القليلة، ونزل في أرض صخرية مقابل سبتة سميت من يومها باسم: جبل طارق، ولقي مقاومة محدودة من جيش حاكم الجزيرة، لكنه هزم شراذم القوط، واستمر في سيره ـ الذي كان بعيدًا عن عاصمة طليطلة ـ مما دفع لذريق إلى الإسراع بالعودة إليها ليواجه هذا الخطر الجديد. وجهز بسرعة جيشا، عليه قائد من قواده الكبار، ليسبق إلى لقاء طارق حتى يستكمل لذريق أهبته للحرب، لكن طارقا هزم هذا الجيش هزيمة منكرة واخترق وسط إسبانيا وغربها مستمرا في مسيرته نحو طليطلة نفسها.

□

كانت الهزيمة التي ألحقها طارق بن زياد بالجيش الذي أرسله لذريق لمحاربته ذات أثر بعيد في نفس القوط وملكهم الذي كان عرشه مقلقلا بسبب الخلافات بين من حوله وتفرقهم، شيعا وأحزابا، كل منها يتطلع إلى انتزاع الملك منه. ولكن

الخطر القادم من جيش المسلمين، وحد هؤلاء المختلفين. واستطاع لذريق أن يستفيد من أثر هذا الخطر فيجمع حوله جمهرة الأمراء والأشراف والأساقفة، وحَشَدَ هؤلاء رجالهم وأتباعهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم قدر بما بين تسعين إلى مائة ألف.

واتجه الجيش جنوبا بعد خروجه من طليطلة للقاء المسلمين. وكان طارق بن زياد قد بلغته أنباء هذا الاستعداد العظيم فكتب إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد فأمده بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ عدد جيش المسلمين نحو اثني عشر ألفًا. معهم قوة صغيرة يقودها حاكم سبتة من أصحابه وأتباعه وهم من المسيحيين.

كان القوط أضعاف المسلمين عددا، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ومفاوز لا علم لهم بدروبها، ولا عهد لهم بها. والتقى الجمعان قريبا من مدينة شَذُونَة. وكان ملك القوط يشعر بالخلل في نفوس من حوله، فأرسل طليعة من فرسانه تناوش المسلمين ليعرف مدى قوتهم، فما إن رأى المسلمون هذه الطليعة حتى انقضوا عليها يريدون استئصالها، فولى أفرادها هاربين، وأنبأت هزيمتهم المنكرة لذريق بحال جيش المسلمين وما هم عليه من القوة المادية ومن الروح المعنوية العالية. ثم بدأت المعركة الحقيقية بين الفريقين في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ واستمرت سبعة أيام أظهر فيها ـ أو في أوائلها ـ فرسان القوط قدرة عظيمة وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان، الذين كانوا قوام جيش طارق بن زياد.

وعندما احتدمت المعركة واشتد أوارها بدأ الناقمون على لذريق، الذين جمعهم خطر الفتح الإسلامي حوله، يتحينون الفرصة للإيقاع به ويعملون عمل الطابور الخامس في جيشه، ويشجعهم على ذلك حاكم سبتة وأسقفها اللذان كانا في صفوف المسلمين متحالفين معهم.

وأخذ كل أمير من أمراء لذريق يطلب السلامة لنفسه، ويعمل على الانفلات بأتباعه من المعركة بغير خسائر أو بأقل خسائر ممكنة، فخلخل ذلك صفوف جيش القوط، وفتَّ في عضد من بقوا على ولائهم لملكهم من أمراء لذريق وجنوده، وتمكن جيش طارق بن زياد ـ على ضآلة عدده، في مقابلة جيش لذريق ـ من إحكام السيطرة على عدوهم وتطويق كتائبه. فلم يأت اليوم السابع من أيام المعركة إلا وقد تم النصر لطارق وجنده، وهزم القوط شر هزيمة، وشُتِّتَ منهم ألوف في كل صوب.

ولم يعثر للذريق على أثر بعد المعركة: قيل إنه ألقى بنفسه في النهر بعد أن أثخنته الجراح فمات غريقا، وقيل إنه قتل في المعركة ولم تعرف جثته وقيل إنه فر ثم قتل بعد ذلك، وقيل إنه لحق ببعض الأديرة في البرتغال وترهب وعاش متنكرا فلم يعلم بحقيقته أحد(!)

وأيا ما كان الأمر فإن الثابت الوحيد أن هذا الملك فقد حياته وملكه في موقعة واحدة وهي موقعة شَذُونَة، وبها انتهى عهد القوط في الأندلس بعد أن استمر زهاء ثلاثمائة سنة ليبدأ عهد الحكم الإسلامي الذي امتد هناك نحو ثمانية قرون، والله يداول الأيام بين الناس.

* * *

فتح عمورية

ابتلي المسلمون في سنة ٢٠١هـ بفتنة تعرف باسم (فتنة بابك الخُرَّمي) الذي خرج على الدولة وهزم جيوشها وكان يدعو إلى الإيمان بالحلول، وتناسخ الأرواح والإباحية الجنسية وغير ذلك من الكفريات واتبعه خلق كثيرون فَسُمُّوا (البابكية) نسبة إليه، وكان كما يصفه ابن كثير، زنديقا كبيرا. وأخذت الدولة العباسية في مواجهته منذ خروجه إلى أن كان زمن خلافة المعتصم التي بدأت سنة ٢١٨ هـ، وكانت آخر وصايا أخيه المأمون له، وهو على فراش الموت، ألا يتوانى عن القضاء على بابك وأصحابه، بعد أن كان المأمون قد حاول القضاء على هذه الفتنة دون أن يوفق في ذلك.

وجه المعتصم قواده إلى المناطق التي كان يسيطر عليها بابك الخرمي فاستطاع أحد قواده وهو (حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين) أن يقضي على بابك ويحرر البلاد التي كان يسيطر عليها من هذه السيطرة، ويقبض عليه هو وشقيقه عبد الله، ويأتي بهما إلى المعتصم.

وفي أثناء انشغال المعتصم بحرب بابك وطائفته هاجم ملك الروم أطراف الدولة الإسلامية فدخل بلدة يقال لها (زِبَطْرة) وبلدة يقال لها (مَلْطِية) فأوقع بأهلهما خسائر هائلة، وأغار على ما فيهما من حصون المسلمين، وأسر أعدادا كبيرة من الرجال والنساء حتى قيل إن عدد النساء كان ألف امرأة، ومثَّلَ بمن أسره

من رجال المسلمين تمثيلا شنيعا. وكان سبب أن بابك الخرمي راسل ملك الروم، عندما حاصره الأفشين، يخبره بأن الخليفة أرسل إلى موضع حصار بابك جمهور جيشه، ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها، وقال له: «فإن كنت تريد الغنيمة فانهض من فورك إلى ما حولك من بلاد المسلمين فخذها» فصدّق ملك الروم كلام بابك وبادر إلى أقرب مدن المسلمين إليه وفعل بها ما فعل.

وبلغت أخبار العدوان الروماني المعتصم. وقيل له: إن امرأة هاشمية في الأسرى صرخت عندما أسرها الروم (وامعتصماه)! فأجابها من موضعه ـ عندما بلغه ذلك ـ (لبيكِ.. لبيكِ). ونهض من ساعته وأمر بالنفير لحرب الروم، وجهز جيشا لم يجهزه خليفة قبله، وأحضر قاضي بغداد عبد الرحمن بن اسحاق، والقاضي شعبة بن سهل، وشهودا كثيرين، فأشهدهم على ما وقفه من الضياع فعجل ثلثه لولده وثلثه لمواليه وثلثه لله تعالى، ووجه فرقة من هذا الجيش يقودها ثلاثة من أشجع قواده إلى (زِبَطْرة) لإعانة أهلها فوجدوا ملك الروم قد غادرها بجيوشه، فاستقروا بها قليلا، وأرسلوا إلى الأطراف يطمئنون أهلها أن جيوش الإسلام قد وصلت إلى بلادهم، وأن الروم قد خرجوا منها، فعاد الناس إلى قراهم واستقروا بها. وكان المعتصم قد قضى على بابك الخرمي في رمضان سنة ٢٢٢هـ. فلما تجهز وخرج إلى بلاد الروم خرج إليها من سامراء (سرمن رأى)، وعسكر في بلاد الروم على نهر يقال له نهر اللمس قريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وكان مكان معسكر المعتصم هو موضع تبادل الأسرى بين المسلمين والروم، إذا وقع بينهم أسر في المواجهات التي كانت تحدث بين الفريقين من وقت إلى آخر.

ولما بلغ أمر العدوان الرومي، على بلاد المسلمين، المعتصم سأل قواده: أي بلاد الروم أحصن وأمنع (يعني أقوى حصونا وأكثر تسليحًا وأكثر جندًا)؟ فقيل له عمورية، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية. وأحسب ـ والله تعالى أعلم ـ أن المعتصم رحمه الله لو كانت بلغته

الأحاديث المروية في فتح القسطنطينية لتوجه إليها فاتحا؛ لكن الله تبارك اسمه ادخر القسطنطينية لآخر دول الإسلام الجامعة: الدولة العثمانية، وللخليفة الشاب البطل محمد الفاتح رحمه الله.

□

لما بلغ المعتصم أسوار عمورية، وكان ذلك في السادس من رمضان سنة ٢٢٣ هـ، بعث حاكم عمورية إلى ملك الروم يخبره ببدء الحصار على مدينته وبأنه عازم على الخروج من الأبواب كلها بمن معه بغتة ليفاجئ المسلمين بقواته قبل أن يستعدوا للقتال الاستعداد الكامل. وقال للملك في كتابه: إنه لابد أن يفعل ذلك مهما كانت النتائج لأنه أفضل من انتظار إكمال المسلمين استعداداتهم وكمال راحتهم بحيث يصبحون أقوى على القتال. وأرسل حاكم عمورية هذا الكتاب مع غلامين له، فلما مروا على جيش المسلمين اشتبه فيهم بعض الجنود فسألوهما عن شأنهما فزعما أنهما من أصحاب أمير من أمراء جيش المسلمين، ولم يصدقهما الجنود في ذلك فأسروهما، وحمل الغلامان إلى المعتصم فأقرا عنده بأنهما من غلمان حاكم عمورية (كان اسمه مناطس) وأنه أرسلهما إلى ملك الروم بالرسالة المذكورة، وقررا للمعتصم أنهما يعرفان الإسلام ويريدان الدخول فيه، فأسلما من فورهما. فأمر لهما المعتصم بهدية، وأن يطاف بهما حول أسوار عمورية، ويعلن إسلامهما، ثم يوقف بهما تحت الحصن الذي يتحصن فيه حاكم عمورية (مناطس) وتنثر عليهما الدراهم، وتقدم إليهما الهدايا، ويبرزا الكتاب الذي حملاه منه إلى الملك، فجعلت الروم تسبهما وتلعنهما لأنهما فضحا قائد المدينة وحاكمها.

وأمر المعتصم بتجديد الحرس المقابل لأبوب المدينة والاحتياط التام والتحفظ من خروج الروم بغتة، ومر على قواته فأمر في مواضع بزيادة المجانيق والعتاد، من مختلف آلات الحرب، فأحكم الحصار حول المدينة، وضيق على الروم، وكان رجل من المسلمين قد أسره الروم، وأكرهوه على ترك الإسلام والدخول في دينهم

فأظهر ذلك وهو يكتم إيمانه، وزوجوه امرأة منهم ليضمنوا بقاءه، فلما رأى جيش المعتصم وهو على رأسه، خرج متخفيا من عمورية وأتى خيمة المعتصم وطلب لقاءه، فقصَّ عليه خبره، وجدد أمامه العهد بالإسلام، وأخبره عن موضع وحيد في سور المدينة كان قد هدمته السيول وبُنِيَ بناءً ضعيفا بلا أساس، وكان الملك قد أمر مرات ببنائه فلم يمتثل حاكم عمورية، فأمر المعتصم بمعاينة الموضع الذي ذكره الرجل المسلم، فوجد كما قال، إلا أن بينه وبين المدينة خندقا عميقا يصعب اجتيازه، فأمر المعتصم كل رجل من الجيش أن يذبح رأسا من الغنم فيأكل منها وأن يأتي بجلدها فيملأه ترابا ويطرحه في الخندق، فسوي الخندق بالأرض، وأمر المعتصم بأن يُهالَ تراب كثير فوق الجلود، وهكذا أصبح الخندق طريقا ممهدا يمكن السير عليه(!)

ونصب المعتصم المجانيق على كل ناحية من السور، ورماه بها، حتى انهدم السور في الموضع المعيب منه، ولكنه لم يكن كافيا ليدخل منه الرجال والخيل. فقَّوى المسلمون حصار المدينة وشددوا على أهلها، وفزع الروم داخلها من قرب دخول المسلمين عليهم، وضعف القائد الموكل بالجزء المنهدم من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار، ومن مناوشات المسلمين لجنوده، فذهب في الليل إلى مناطس حاكم عمورية وسأله المدد وقال له: إن الحرب عليَّ وعلى أصحابي ولم يبق معي أحد إلا جُرِحَ فأبى مناطس أن يمده بأحد. فلما أصبح اليوم التالي خرج هذا القائد إلى المعتصم وأمر جنوده وأصحابه ألا يحاربوا، وأعلن عنده بهزيمته، فدخل المسلمون المدينة وغنموا فيها غنائم لا تعد ولا توصف، حتى أمر المعتصم بحمل ما كان يمكن للجيش حمله ووجَّه بإحراق ما تركه الروم من آلات الحرب لئلا يعودوا لأخذها ويتقووا بها على قتال المسلمين.

□

كان من عجيب أمر عمورية، أن المنجمين زعموا عندما علموا بعزم المعتصم

على المسير، أنه لا يفتحها. (وكان اتخاذ المنجمين في بلاط ذوي الجاه والسلطان، أو طلبهم عند مهمات الأمور، عادة متبعة في ذلك الزمان، وكان ذوو الجاه والسلطان يسألون المنجمين عن العمل قبل الإقدام عليه. فيُقدمون أو يُحجمون امتثالا لقولهم. واتباع المنجمين والعرافين أمر محرم شرعا. والمباح، بل المأمور به، هو الاستخارة في جليل الأمور وحقيرها، وما ييسره الله للمستخير بعدها تكون فيه المصلحة. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن الطيرة، أي التشاؤم ويحب الفأل الحسن).

أقول كان المنجمون قد حكموا جازمين أن المعتصم لا يفتح عمورية في عامه ذاك، وراسلته الروم بأن منجميهم أخبروهم أنه لا يفتح مدينتهم إلا في وقت إدراك التين والعنب(أي نضجهما)، وذلك في الصيف، وقالوا إن بينك وبين ذلك وقت طويل يمنعك من انتظاره البَرَدُ والثلج. فضرب المعتصم بذلك كله عرض الحائط وأبى أن ينصرف عنها ففتحها الله عليه وتبين كذب المنجمين. وخلَّد هذا الواقع أبو تمام بقصيدته العظيمة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

ومنها:

أين الرواية أم أين النجوم وما

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصًا وأحاديثًا ملفقة

ليست بنبع إذا عدت ولا غرَب

وصيروا الأبْرُجَ العليا مرتبةً

ما كان منقلبا أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة

ما دار في فلك منها وفي قطب

لو تبينت قط أمرا قبل موقعه

لم تُخْفِ ما حل بالأوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به

نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتحٌ تفتح أبواب السماء له

وتبرز الأرض في أثوابها القشب

يا يومَ وقعةِ عموريةَ انصرفت

منك المنى حُفَّلاً معسولةَ الحَلَبِ

وقد كان المعتصم رجلا شديد البأس قوي الشكيمة قاسيا في غضبه كل القسوة، رحيما عند الرضا غاية الرحمة، وقد اتخذ من الجند ما ضاقت عنه بغداد، فبنى لهم مدينة سُر من رأى وسكنها مع جيوشه.

قال الحافظ الذهبي: من أحسن ما سمع من المعتصم ـ إن صح عنه ـ قوله: «اللهم إنك تعلم أني أخافك من قِبَلي ولا أخافك من قِبَلِكَ، وأرجوك من قِبَلِك ولا أرجوك من قِبَلي». وهو لم يكن قد أتم تعليمه.

وقد وصف الخطيب البغدادي فتحه عمورية فقال: «إنه أنكى في العدو نكاية عظيمة ونصب عليها المجانيق، ولما فتحها جاء ببابها إلى العراق . قال وهو باقٍ حتى الآن ـ أي وقت كتابته كلامه ـ منصوب على أحد أبواب دار الخلافة، وهو

الباب الملاصق للمسجد الجامع في القصر. وقد حكوا عنه أنه لما استتم عددا كافيا من الجنود الأتراك، ومن عدة الحرب، وذل عدوه في كل نواحي البلاد، أتته المنية فجأة فقال في حُمَّاهُ قبل الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ (الأنعام: ٤٤)».

إن المعتصم كان واحدا من الحكام العظماء، عليه مآخذ وله حسنات، فمن أشد المآخذ عليه استمراره في فتنة العلماء الكبار الذين أبوا أن يجيبوا إلى القول بخلق القرآن وسجنهم وتعذيبهم. ومن أهم مآثره هذا الفتح العظيم لمدينة عمورية الذي تقدمت به جيوش المسلمين في بلاد الروم ما لم تتقدم قبله، والذي ترك في نفوس الروم شعورا صادقا بقوة المسلمين منعهم زمنا طويلا من العودة إلى العدوان على بلادهم. ومن مآثره المهمة قضاؤه على بابك الخرمي وإنهاء فتنته التي استمرت نحو ٢٠ سنة وأضلت ما لا يحصى من الخلق فكانت نهايتها على يد المعتصم. وميزان تقويم الرجال يجب أن يكون عادلا يزن الحسنات ويزن السيئات، ويقضي في النهاية بالحق.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

عين جالوت

عندما استولى التتار على بغداد، وفرغوا من احتلالها، وقضوا على الخلافة العباسية فيها، أكثروا الفظائع في أهلها ومثلوا بالرجال والنساء، وعمّ الخوف عاصمة الخلافة وما حولها من المدن والقرى. وبدأ بعض ملوك الشام في مراسلة ملك التتار (هولاكو) وإظهار الطاعة له، خوفًا من أن يصيبهم ويصيب بلادهم ما أصاب الخليفة وبلده. ولكن هذا الخوف الظاهر من التتار، والتسليم المبكر لهم، والهوان الذي أظهره هؤلاء الحكام أمامهم، لم يردهم عن خطتهم الأصلية وهي الاستيلاء على الشام تمهيدا للاستيلاء على مصر.

فلم يكن هولاكو غافلا عن أن الذي يجمع بين حكم مصر وحكم الشام يحكم المشرق الإسلامي كله، وأنه إذا لم يتملك هذين القطرين العظيمين تظل احتمالات نشوء مقاومة منهما قائمة، وهي مقاومة عندما تجتمع فيها قوى مصر والشام ستكون تهديدًا لملكه وخطرًا عليه مهما بلغ. فسار هولاكو إلى الشام وسقطت مدنه أمامه، مدينة بعد أخرى، حتى وصل إلى دمشق وأباح أحياء تلك العاصمة الإسلامية العظيمة وبيوتها ومتاجرها لجنوده ينهبون ويسرقون، وأهل دمشق بين مغادر لها خوفا من التتار، وبين لائذ بأمرائها في قلعة دمشق، على وهم أن يستطيع هؤلاء الأمراء صد الإعصار المغولي.

وانتهى أمر القلعة ومن فيها بالسقوط في يد التتار. وبلغت أنباء هذا السقوط

المخزي مصر، التي كانت تحت حكم السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز، فجمع أمراءه لمشاورتهم في هذا الخطب الجلل وما ينتظر بعده إذا لم يجد التتار قوة تروعهم وتكف عداوتهم. وأخبر قطز الأمراء أن التتار أخذوا جميع بلاد الشام، ووصلوا إلى أطراف غزة والخليل والسلط وبيت جبريل (من مدن فلسطين) فقتلوا وسَبَوا، وأخذوا كل ما قدروا عليه، وعادوا إلى دمشق فباعوا فيها ما نهبوه بلاد فلسطين.

وفي أثناء هذه المداولة بين قطز وأمرائه، وصلت إلى قطز رسالة من هولاكو يقول فيها: «يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أننا نحن جند الله في أرضه، خَلَقَنا من سَخَطه، وسلَّطنا على من حَلَّ به غضبه فلكم بجميع البلاد معتبر.. فاتعظوا بغيركم وأسلموا ألينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا.. فنحن لا نرحم من بَكى ولا نَرِقّ لمن شكى فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب... فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص... فخيولنا سوابق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يُسْمَع فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم».

فقرأ الملك المظفر قطز هذا الكتاب على أمراء مصر، فأجمع أمراؤهم على قتل الرسل والهرب إلى الصالحية(!) ولكن قطز لم يقبل هذا الرأي، وتخير عددا ممن يثق بهم من الأمراء وشاورهم مشاورة ثانية، وبيّن لهم ضرورة الخروج للقاء التتر ومواجهتهم فوافقوه وتحمسوا لذلك. ونودي في القاهرة وسائر أقاليم مصر بالخروج في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ.

وبدأ المسير، ولكن بعض الأمراء تردد في الطريق فقال قطز: «أنا ألقى التتار بنفسي» وسار بمن معه من الجنود ومعه الأمير ركن الدين بيبرس (الظاهر بيبرس) فأمره بالتقدم في كتيبته من الجند ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها

جموع عظيمة من التتار فلما بلغهم خبر اقتراب طليعة الجيش المصري من غزة رحلوا عنها، ودخلها بيبرس وطمأن أهلها، ومَلَكَها بغير قتال. ولحقه قطز، وسارا معا إلى أن بلغا عين جالوت. فجمع قطز الأمراء ورؤساء الجند وحضهم على قتال التتر، وذكَّرهم بما أصاب أهل البلاد الأخرى من القتل والسبي، ودعاهم إلى العمل على استنقاذ الشام ونصرة الإسلام، وحذرهم عقوبة الله تعالى للمتواكلين يوم الزحف، والقاعدين عن لقاء عدو الله وعدو الإسلام، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد.

وفي هذا القدر من الإعداد لموقعة عين جالوت دروس لا ينبغي أن تفوتنا في هذا العصر. أولها: أن الوقيعة بين مصر والشام، والخلاف بينهما لا يفيد منهما إلا عدوهما المحارب لهما معًا. وثانيها: أن الطريق الأوحد للوحدة العربية/ الإسلامية هو وحدة الشام ومصر؛ هي النواة الأساس لكل وحدة أخرى. وثالثها: أن العدو ـ مهما بلغت قوته ـ إذا لقي جيشًا مقدامًا صادق الإيمان، قوي العزيمة، وقائدًا شجاعًا لم تقم له قائمة. وهذا قانون دائم في المقابلة بين الذين يقاتلون في سبيل الله والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أخلى التتار غزة بمجرد سماعهم باقتراب طليعة صغيرة من جيش مصر يقودها الظاهر بيبرس. ورابعها: أن غزة، وفلسطين عامة، هي الباب الشرقي لمصر من حماها فقد حمى مصر ومن فرَّط فيها فرّط في مصر، ومن حاربها حارب مصر ومن أضعفها فقد أضعف مصر!! والتنبه لهذا واجب على كل مصري، مخلص لوطنه، حاكمًا كان أم محكومًا.

□

كان الملك المظفر قطز ـ فيما تجمع عليه المصادر التاريخية ـ بطلا شجاعا، مقداما، حازما، حسن التدبير، له دين، وفي خلقه وسلوكه خير كثير. فلما دهم التتار بلاد الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب كامل الرجولة فعزل الصبي

الذي كان يحكم مصر وملَّك نفسه أمرها. يقول الحافظ الذهبي: «ثم لم يبلع ريقه، ولا تَهَّنى بالسلطنة، حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار، فتجهز للجهاد وشرع في أهبة الغزو، والتفت إليه عسكر الشام وبايعوه، فسار بالجيوش في أول رمضان من سنة ٦٥٨هـ لقصد الشام ونصر الإسلام».

لما التقى جيش المظفر قطز بجيوش التتار عند عين جالوت كان في قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر، وكان التقاء الجيشين بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، وبدأ التتار بهجوم مباغت أرادوا به تحقيق نصر سريع على المسلمين، ووقع اضطراب في جناح جيش قطز، فما كان منه عندئذ إلا أن ألقى خوذته على الأرض وصرخ بأعلى صوته (واإسلاماه) قالها ثلاثا، فانضم إليه قواد كثيرون بمن معهم من العسكر، وحمل بنفسه، وبهم، حملة صادقة على التتار فقتل قائدهم وقتل أحد الملوك العرب الذين كانوا يقاتلون مع التتار ضد جيش مصر (ملوك الخيانة التي تقع بقتال وبغير قتال، بمجرد الانحياز إلى العدو وتوليه) فانهزم التتار هزيمة منكرة، وفروا من مكان المعركة، وأبلى الأمير بيبرس البندقدار بلاء حسنا بين يدي قطز، فأعادت هذه الكَّرة الناجحة الروح المعنوية لجيوش المسلمين عالية، وثقتهم بقيادتهم إلى سابق عهدها.

وتجمع التتار بعد ذلك قرب بيسان، وأعادوا ترتيب جيوشهم فلحقهم المسلمون، وكان في جيش المسلمين صبيٌ تتريٌ جاء مع رسل هولاكو إلى مصر، فأخرجه قطز مع الجيش، فانتهز فرصة اصطفاف الجيش في بيسان ورمى سهما نحو قطز يريد قتله فأخطأه وأصاب فرسه فصرعه وأُخِذَ الصبي فقتل من فوره (لا يقولن قائل: كيف يقتل صبي؟ فهذا ليس صبيًا بريئًا بل هو مقاتل مخاتل شرع في قتل قطز فعلا، ومن قاتل يجري عليه حكم المقاتلين بغير خلاف) وأصبح قطز يقود الجيش على قدميه(!) فجاءه أحد شجعان قواده، وهو الأمير فخر الدين ماما، وعرض عليه فرسه يركبه فأبى وقال له: «ما كنت لأرزأ المسلمين بنزولك

في هذه الساعة». وجيء السلطان بفرس بديل من خيل الجيش فركبه. وكان جمع التتر في هذه المرة أكثر بأسا من جمعهم في عين جالوت بسبب ما نزل بهم من هزيمة هناك، فقد كانت هزيمتهم في عين جالوت هي أول هزيمة تلحقهم على يد جيوش المسلمين منذ خرجوا من بلادهم يهلكون الحرث والنسل، ولا تقوم في مواجهتهم قوة ولا يردهم جيش ولا يهابون دولة!

وزلزل المسلمون زلزالا شديدا في أول اللقاء، كما حدث في عين جالوت، فلجأ قطز إلى السلاح الذي جربه هناك فصاح بأعلى صوته «يا الله انصر عبدك قطز على التتار» «واإسلاماه» ثلاث مرات؛ فالتأم عليه جيش المسلمين كله حوله، وتراصت صفوفهم بعد الفرقة، وكان الظاهر بيبرس يبلي أحسن البلاء في مواجهة جنود التتر، واستمر القتال معظم اليوم، فلما انكسر التتار وهزموا فروا من موضع القتال وجه السلطان قطز بيبرس البندقداري خلفهم، ليسترد من في أيديهم من أسرى المسلمين، ويمنعهم من دخول القرى والمدن التي تقع في طريق فرارهم. فظل بيبرس البندقداري يتابعهم حتى بلغ حلب. وبلغت الأخبار إلى دمشق ففر من كان فيها من التتر وتبعهم المسلمون يقاتلونهم ويستخلصون الأسرى من أيديهم، وقتل جمع من الخونة الذين كانوا يوالون التتار ضد المسلمين، وأعلنت البشائر بانتصار قطز وقرب وصوله إلى دمشق.

هذا كان شأن التتر المهزومين وأشياعهم من الخائنين، أما قطز، المنتصر بفضل الله، فقد كان من شأنه أنه نزل عن فرسه، عند تحقق النصر، وسجد على الأرض شكرا لله تعالى، وقبَّلها، وحمد الله أعظم الحمد. ثم ركب بعد ذلك إلى دمشق، فلم يكن أهلها أفرح بشيء كما فرحوا بوصوله إليها. ودانت له سائر الشام وجميع البلدان من حد الفرات إلى حد مصر. وتوحدت الجبهة العربية الإسلامية فلم تقم في وجهها للتتار قائمة بعد ذلك.

□

إن العبرة المأخوذة من نصر الله للمسلمين على التتار في عين جالوت كثيرة:

١ ـ لا عبرة بالزمان، بل العبرة بالخواتيم.

٢ ـ النصر مع الصبر والإخلاص، لا بمجرد العدة والعدد.

٣ ـ الضعف جائز لأنه بشري، وهو يجبر بالتوبة والرجوع إلى الصف والقتال مع المسلمين أو نصرتهم بكل ما يقدر عليه. لكن الخيانة لا تسوغ ولا تبرر ولا يعذر بها أحد ولا يعفى عن مرتكبها عقابًا له ونكالاً لغيره.

٤ ـ عاقبة الخيانة لعنة الله والناس، ولعنة التاريخ، وهذه خسائر دائمة عظيمة، لا تقارن بكسب مؤقت تافه مادي أو معنوي، للخائن أو لغيره من قومه أو ذريته، لا يسمن ولا يغني من جوع. وهذا ما حدث لملوك العرب حلفاء التتر وفيه عبرة لحلفاء الصهاينة اليوم، فهل ثمة من يعتبر؟؟

٥ ـ عند أول تحرك للمسلمين من مصر فرَّ التتار من غزة، وهكذا كل عدو مستعمر غاز ما إن يتحرك ضده أصحاب الأرض والحق حتى يفر منها تاركاً وراءه ما كان يملك من مالها وأهلها.

٦ ـ ولكن النصر صبر ساعة؛ فمن علم هذه الحقيقة غنم وسلم، ومن خاف من عدوه انهزم مهما يكن عدد جنده أو عدتهم.

٧ ـ كان تجهيز الجيش المصري بأموال الأمراء ونسائهم قبل أخذ أموال الناس، وكان ذلك بناء على فتوى العز بن عبد السلام، الملقب بسلطان العلماء، رحمه الله، وهذا دور العلماء العاملين في توجيه الحكام، وقد كان من حديث هذا الأمر أن الأمراء المماليك لما جَبُنوا عن ملاقاة التتار، استشار الملك المظفر قطز الشيخ عز الدين بن عبد السلام، رحمه الله، فقال: «اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر». فقال له السلطان: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار (وقروض الملوك، المعتاد في كل عصر ألا

ترد). فقال الشيخ عز الدين: «إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام (يعني المأخوذة من النهب والسرقات والمصادرات لأموال الناس) وضربته سكةً ونقدا وفرقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم، فذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا» (!)

فأحضر السلطان والأمراء ما عندهم من الأموال والحليِّ بين يدي الشيخ العز بن عبد السلام، وامتثلوا أمره، ولم يحتج الجيش لأموال الناس، ونصرهم الله بطاعته سبحانه، وهزم التتر بمعصيتهم وتجبرهم!! وهكذا يكون دور العلماء، وهكذا كان دورهم دائمًا، كما سوف نرى من صنيع ابن تيمية في المقالات التالية إن شاء الله.

٨ ـ من دروس عين جالوت أن الأمن القومي المصري يبدأ من الشام شرقا، ومن السودان جنوبا، ومن ليبيا غربا، فلا مناص من رعاية هذه الحدود كلها بعلاقات مصرية خاصة: تحمي الديار وتضع في حسبانها تغير الأحوال!! ولله الأمر.

* * *

معركة شُقْحب

شُقْحب موضع في بلاد الشام بين مرج راهط ومرج الصُفر جرت فيه في رمضان سنة ٧٠٢هـ موقعة عظيمة بين التتار والمسلمين، انتصر فيها المسلمون نصرا مؤزرا.

ذلك أن التتار، الذين يسميهم بعض المؤرخين في هذه المرحلة بـ(المغول) على الرغم من هزيمتهم في عين جالوت، ثم في بيسان، لم يكفوا عن الإغارة على بلاد المسلمين المرة بعد المرة، يحاولون بتلك الغارات محو مرارة الهزيمتيْن الكبيرتيْن، وإشعار المسلمين أنهم لا يزالون على حالهم من القوة والقدرة على غزو بلادهم ونهبها وإذاقة أهلها هوان الهزيمة ومذلة الاحتلال.

وقد بدأت غاراتهم التي انتهت بموقعة شُقْحب، في سنة ٧٠٠هـ فهاجموا عددا من الثغور الشامية وهددوا دمشق عدة مرات، وفي شهر رجب سنة ٧٠٢هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول دمشق، وكانوا قد وصلوا إلى حمص وبعلبك، وعاثوا فيهما فسادا، وخاف الناس من ذلك فنزلوا مرج الصُّفر يريدون الاحتماء هناك من التتار، وشرع كثير من الناس في الهرب إلى الديار المصرية والحصون المنيعة في البلاد الشامية.

فاستعد سلطان مصر وأمراؤها للخروج إلى دمشق لحمايتها؛ ورد التتار عن سائر بلاد الشام.

وكان المثبطون في الشام وفي مصر يوهنون عزائم المقاتلين ويقولون: لا طاقة لجيش الشام ولا جيش مصر بلقاء التتار. ووقف في مواجهة هذا التيار العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية يردون على هؤلاء المُرْجفين ويتصدون لما يروجونه من الشائعات. وسافر ابن تيمية من دمشق إلى القاهرة لمقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وإقناعه بالخروج إلى الشام لإنقاذه، وكلمه بكلام طويل قوي، كان منه قوله للسلطان: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه في زمن الخوف، ويستغله في زمن الأمن، ولو قُدّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله، وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وأهله رعاياكم؟ فاستجاب السلطان وأمراؤه لهذا الكلام المؤثر، وأجمع أمرهم على الخروج بجيش مصر إلى الشام. فرجع شيخ الإسلام ابن تيمية من فوره إلى دمشق، يتابع تشجيع الناس على الصبر للقاء العدو، ومعاونتهم على حسن الاستعداد للقائه، وإلهاب عواطفهم وإذكاء حماسهم، وتهيئتهم لخوص معركة فاصلة مع هؤلاء التتار.

ووصل إلى دمشق مدد من حماة فخرج إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية فاجتمع بهم، في موضع يسمى القطيفة، وأخبرهم باتفاق أمراء الشام وأمراء مصر على مواجهة العدو فأجابوا إلى ذلك، وحلفوا للشيخ في ملأٍ من الناس أنهم معهم في مواجهة التتار والدفاع عن أهل الدار.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يصنع كما صنع سلطان العلماء العز بن عبد السلام مع الملك المظفر فيحلف للأمراء أنهم منصورون. فيقولون له: «إن شاء الله»، فيقول: «إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا». ويتأول في ذلك آيات من كتاب الله تعالى كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (الحج: ٦٠). وعندما بلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، وهو قاضي مصر يومئذ، وبلغه أنه قال للسلطان الناصر: إياكم والتخلي

عن نصرة الشام وأهله فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ (محمد: ٣٨). ويقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٩). استحسن ابن دقيق العيد ذلك جدا وأعجبه وأيد الشيخ فيه، وذكر للناس أن شيخ الإسلام ابن تيمية على الحق، وأن تأوله هذه الآيات تأول صحيح.

وتوافدت العساكر من مصر ومن مدن الشام إلى دمشق، وكانت الجيوش كلها تحت قيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي طلب من شيخ الإسلام ابن تيمية أن يقف معه في المعركة فقال له: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام فلا نقف إلا معه»!!

□

لم يقف دور شيخ الإسلام ابن تيمية عند التشجيع على القتال والحث عليه، وإنما قام بدور مهم في كشف شبهة عرضت لبعض العلماء والعامة حتى كادت أن تفت في عضد المحاربين. وقصة هذه الشبهة أن بعض الناس أخذوا يتساءلون: كيف نحارب هؤلاء التتار وهم يظهرون الإسلام وليسوا كفارا؟ وهم ليسوا بغاة خارجين على الإمام لأنهم لم يكونوا في طاعته في أي وقت ليقال إنهم خالفوه وخرجوا عليه. والأصل أن القتال لا يكون إلا لكفار محاربين، أو لبغاة يخرجون بالسلاح على إمام المسلمين بعد أن كانوا يدينون له بالطاعة.

فرد شيخ الإسلام على أصحاب هذه الشبهة ومروجيها قائلا: «إن هؤلاء التتار من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين كلهم، وهم متلبسون بالمعاصي والظلم... إذا رأيتموني في ذلك الجانب ـ يريد جانب التتار ـ وعلى رأسي مصحف فاقتلوني!!» فزالت، بهذا البيان الصحيح والحجة القوية، تلك الشبهة بحمد الله. وتفطن العلماء والعامة لهذا المعنى الذي أورده

شيخ الإسلام، وفهموا وجه الحجة فيه، وأجمعوا أمرهم على مواجهة التتار، وقويت قلوبهم على القتال.

وخرج ابن تيمية في جماعة من أصحابه ليشهد القتال بنفسه، وبمن معه، فرآه بعض الرعاع فظنوا أنه يخرج فرارا فقالوا له: أنت منعتنا من الفرار وها أنت تهرب من البلد، فلم يرد عليهم؛ إعراضا عنهم، وتواضعا لله تعالى من أن يذكر للناس خروجه للقتال، وانشغالا بما هو فيه من الأمر المهم عن الكلام التافه. وفي الميدان كانت ثقة ابن تيمية في النصر تملأ قلبه، وتفيض على من حوله من المجاهدين والمقاتلين، وكان لسان حاله يطمئن الناس باليقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (غافر: ٥١). وجعل يحرض السلطان وجنوده على القتال، يبشرهم بالنصر أو الشهادة فرفع بكلماته المؤثرة درجة إقبالهم على لقاء العدو ورغبتهم في إحدى الحسنيين.

وتنبه إلى أن الناس لا يظهرون فطرا، وكأنهم يحافظون على صيامهم. فأفتاهم بالفطر، نادى بذلك في الناس، وأفطر هو أيضا، ولم يكفه ذلك، بل أخذ يدور على الأجناد والأمراء فيأكل عند كل موضع من شيء معه في يده (لعله تمرات أو نحوها) ليؤكد لهم أن إفطارهم في أثناء القتال، ليتقووا عليه، أفضل من صيامهم. ثم مر، مع الخليفة المستكفي بالله والسلطان الناصر محمد بن قلاوون بين الجيوش والقواد، وجعل يقرأ آيات القتال التي تحض على الاستشهاد والثبات والصبر، وكان الخليفة يقول للناس: دافعوا عن دينكم وعن حريمكم.

ووضعت الأحمال وراء صفوف المسلمين وأمر السلطان الناصر بن قلاوون غلمانه بقتل من يحاول الهرب من المعركة. ومن قبلُ كان علماء دمشق قد أفتوا بأن من ترك بلاده هربا من قتال التتار فدمه حلال. وثبت السلطان الناصر في القتال ثباتا عظيما، وبايع الله في هذا الموقف العظيم أمام الناس على إرادة إحدى الحسنيين: إما النصر الذي يرفع لواء الدين، وإما الشهادة في سبيل الله. وأمر بفرسه فقُيِّد

حتى لا يهرب إذا حمي الوطيس. واحتدمت المعركة بين الفريقين واستحر القتل واستطاع التتار (المغول) أن ينزلوا بالمسلمين خسارة ضخمة في بادئ الأمر، وقتل ثمانية من الأمراء القواد، ولكن ثبات السلطان ومن معه، والخطاب الحماسي، المملوء بآيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، الذي كان يبثه ويكرره في كل موضع شيخ الإسلام ابن تيمية، أعادا الكرَّة من جانب المسلمين على التتر فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وتغير وجه المعركة، وأصبحت الغلبة للمسلمين، حتى إذا أقبل الليل فرَّ التتار إلى أعلى جبل (غباغب) الذي يشرف على سهل شقحب، وبقوا هناك طول الليل ثم نزلوا عندما طلع النهار يريدون الفرار، بعد أن ترك المسلمون لهم ثغرة متعمدة ليمروا منها، فأحاط بهم المسلمون فقتلوا ما لا يعلم عدده إلا الله عز وجل، ثم لحقوا بهم يقتلون ويأسرون.

وفي يوم الاثنين رابع رمضان رجع الناس إلى دمشق، وبَشَّروا بالنصر، ودخل معهم شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه من المجاهدين فاستقبلوا استقبالا عظيما وهنأه الناس على ما كان على يديه وبسبب ثباته على الحق من الفتح والنصر المبين.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

موقعة الزلاقة

لم يطمع في المسلمين عدوهم إلا بسبب فرقتهم. فالفرقة تعني ضياع الهيبة وكسر الشوكة وتمزق القوة. إن هذا الدرس التاريخي القاسي لا تتخلف نتائجه، بصرف النظر عن الدولة التي يقع لها، والزمن الذي تكون فيه. وقد دفعت دولة المسلمين في الأندلس ثمن الفرقة غاليا عندما أصبحت دويلات، يحكم كلا منها ملك من ملوك الطوائف، الذين كانت ألقابهم أكبر من أعمالهم، وأسماؤهم أفخم من ممالكهم، حتى قال ابن رشيق في وصفهم:

مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد!!

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد!!

وفي مواجهة هذه الفُرقة الأندلسية، في عصر ملوك الطوائف، كان الفرنجة يوحدون ممالكهم ليواجهوا مسلمي الأندلس ويستردوا منهم أرضا كانت لثمانية قرون أرضا إسلامية.

كان من أخطر نتائج الفرقة الإسلامية استيلاء ألفونس السادس على أهم المدن الإسلامية في الأندلس وهي مدينة طليطلة سنة ٧٩٣هـ. وبعدها فرضت الجزية

لملوك الفرنجة على ملوك الطوائف، يؤدونها كل سنة صاغرين، وقرر ألفونس السادس أن يبدأ مسيرته للاستيلاء على مدن جديدة باحتلال إشبيلية وقرطبة فطلب من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية إخلاء حصون وقرها، قال المعتمد: «إن الموت أحب إليّ من تسليمها». وأرسل ألفونس يهوديا، يقال له ابن ساليب لأخذ الجزية. فأساء الأدب مع المعتمد، ولم يقبل منه الدنانير والدراهم التي أعطاها إياه بزعم أنها من معادن مخلوطة، وهو لا يقبل إلا الذهب الصافي!! فغضب المعتمد وقتل اليهودي ومن معه، وكان هذا ما يريده ألفونس مبررا لغزو إشبيلية، فسار بجنوده يقتل ويحرق ويسفك الدماء ويسبي النساء، حتى وصل إلى جزيرة طريف، في أقصى جنوب الأندلس، على مضيق جبل طارق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلا: «هذا آخر بلاد المسلمين قد وطأته» وأرسل إلى يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين في المغرب، رسالة مهينة يهدده فيها وينذره سوء العاقبة، ويسخر فيها من عقائد الإسلام. فدعا ابن تاشفين أحد قضاة المرابطين وطلب منه أن يكتب جوابا على كتاب ألفونس فكتب ردا مفصلا وعرضه على يوسف بن تاشفين، فقال: «هذا طويل جدا، أين كتابه»؟ فأُتِيَ به، فكتب يوسف بن تاشفين على ظهر الكتاب نفسه يقول: «الجواب ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله» وأضاف:

«ولا كُتْبَ إلا المشرفية والقنا... ولا رسل إلا الخميس العرمرم!!» فلما ورد الكتاب راجعًا إلى ألفونس جُن جنونه، وتوجه إلى إشبيلية وحاصرها ثلاثة أيام، ثم انصرف عنها إلى سرقسطة فحاصرها واحتلها ثم احتل بُلنسية؛ وظهر ضعف أمراء الطوائف ضعفا مهينًا حتى إن ثمانين من الفرنجة هزموا أربعمائة من المسلمين(!!)

اجتمع علماء قرطبة وفقهاؤها وزعماؤها فتشاوروا فيما يجب عمله لإنقاذ بلدهم، فانتهوا إلى ضرورة الاستعانة بالمرابطين. واستحسن المعتمد بن عباد هذا الرأي، ورأى فيه نفاذ بصيرة وحكمةً وسدادًا.

فبدأ من فوره بتقوية جيشه، وترميم الحصون والقلاع، وتشاور مع زعماء إشبيلية فخالفوا زعماء قرطبة وأشاروا عليه بمهادنة ألفونس والرضوخ لشروطه(!!) (وليذكر القارئ المتابع ذلك وأنه هو الذي اقترحه الأمراء المماليك على المظفر قطز من إخلاء البلاد والهرب منها ومهادنة هولاكو!!) عندئذ قال المعتمد لابنه الرشيد، وكان وليَّ عهده: «لو أخذ ملكنا يوسف ابن تاشفين وأصبحت راعي إبل عنده إن هذا لخير من رعي الخنازير عند ألفونس، ولا يسمع الناس عني أبدا أنني أرجعت الأندلس دار كفر ولا تركتها للفرنجة».

وعارض بعض ملوك الطوائف بشدة الاستعانة بالمرابطين خشية أن يستولوا على ملكهم، وكان حاكم مالقة عبد الله بن سكوت يرى أن المرابطين أشد خطرًا من الفرنجة(!!) كما يقول بعض الحمقى عن خصومهم من بني أوطانهم ودينهم في مقابلة الصهاينة المستعمرين.

□

أخذت تجمعات شعبية من الشيوخ والعلماء تكتب إلى يوسف بن تاشفين تحثه على إنقاذ الأندلس ومسلميها، وأرسل إليه المعتمد وفدا من قاضي قرطبة وقاضي بطليوس (ولاية أندلسية)، وقاضي غرناطة، ووزير المعتمد أبي بكر بن زيدون ليحثوه على نصرة بني دينه. وأسند المعتمد إلى القضاة وعْظَ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى أبي بكر ابن زيدون، وزيره، إبرام العقود والاتفاقات مع يوسف بن تاشفين، وحمّلهم المعتمد رسالة مكتوبة إلى يوسف بن تاشفين يرجوه فيها عبور المرابطين إلى الأندلس لمجاهدة الفرنجة ونصرة الإسلام ودين محمد عليه الصلاة والسلام.

ورد عليه يوسف برسالة يطمئنه فيها إلى نيته القدومَ إلى الأندلس. وطلب منه أن يسلمه منطقة الجزيرة الخضراء لكي تكون مستقرا لجيوشه، وختم خطابه

بقوله: «فإن رأيت ذلك فأشهد على نفسك به، وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله (يعني نأتيك بمجرد وصول خطابك إلينا)».

وهذه السفارة بين المعتمد بن عباد وبين يوسف بن تاشفين تدل على إدراك حكام ذلك الزمان في الأندلس للدور المفروض لأهل العلم الديني في الحياة السياسية، وللدور المحفوظ لأهل الخبرة العملية والحنكة القانونية في العلاقات بين الدول والملوك والحكام. وهذان الدوران يتكاملان لتحقيق مصالح الأمة، ولا يتناقضان أو يتنافسان حتى يقول القائل: «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين»؛ فملوك الأندلس كانوا أوضح إدراكًا وأعمق فهمًا للعلاقة بين العلم الديني والعمل السياسي من أصحاب هذه المقولة وأضرابهم.

واستجابة لطلب يوسف بن تاشفين كتب له المعتمد عقدَ هبةٍ بالجزيرة الخضراء، وأشهد عليه قضاته، وأرسله إليه، وتجهز ابن تاشفين بنفسه لقيادة جيش المرابطين، وكتب أمانا عاما لأهل الأندلس في بلادهم وكتب إلى المعتمد: «أنا أول مُنْتَدَب لنصرة هذا الدين، لا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي».

وتجمعت قوات المعتمد ومن ناصره من ملوك الطوائف مع قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء، ولم تكن مناصرة المعتمد من هؤلاء إلا بعد أن طلب منهم النصرة ودعاهم إلى الجهاد يوسف بن تاشفين، فخرج صاحب غرناطة، وصاحب مالقة، وصاحب بطليوس وسارت الجيوش حتى وقفت عند سهل الزلاقة، وهو سهل بينه وبين إمارة بطليوس ثمانية أميال، ونظم يوسف بن تاشفين الجيش، وبلغت الأنباء ألفونس الذي كان يحاصر سرسقطة فرفع الحصار مسرعا وعاد إلى طليطلة، وأعلن النفير العام، وحل خلافاته مع بعض ملوك الفرنجة، وكتب إلى سائرهم يطلب المعونة. فانضمت إليه أعداد غفيرة من فرنسا وإيطاليا وعدد من إمارات الفرنجة المجاورة له، وقُدِّرَ جيش الفرنجة بأكثر من مائة ألف مقاتل بين فارس وراجل. وقُدِّر وجيش المسلمين بتقديرين تراوحا بين عشرين ألفًا وثمانية

وأربعين ألف مقاتل. فكان جيش الفرنجة أضعاف جيش المسلمين على كل حال.

حاول ألفونس خديعة المسلمين بأن أرسل إليهم يقول: إن غدًا الجمعة عيدكم، ويليه السبت عيد اليهود في بلادنا منهم عدد كبير، ويليه الأحد عيدنا، وليس يحسن القتال في أيام هذه الأعياد، فليكن الموعد يوم الاثنين(!) ولكن المسلمين أدركوا أنه يريد أن يستنيموا إلى هذا الاقتراح فيكر الفرنجة عليهم وهم غافلون! لذلك لم يقعوا في الفخ الذي نصبه لهم. وبدأت المعركة فكانت أطوارا؛ طورا للمسلمين وطورا عليهم ولكن ثبات ابن تاشفين ومن معه، وحسن بلاء المعتمد وجنوده ما لبثا أن أثرا في المعركة أعظم تأثير، فانكسر جيش الفرنجة، واضطروا إلى الانسحاب نحو معسكرهم، بعد أن أصيب ألفونس إصابة بالغة في فخده. فوجدوا المعسكر قد أحرق عن آخره، إذ كانت جيوش المسلمين تقاتلهم في المواجهة، وفرقة تحيط بهم من خلفهم فاستولت على معسكرهم وغنمت ما به من عتاد، وأحرقت الخيام، وأبلى المعتمد ابن عباد وأهل إشبيلية بلاء عظيما في هذه المعركة حتى أصيبت تحته ثلاثة أفراس، ونالته جراح كثيرة، ولكن صمود المسلمين حسم المعركة لمصلحتهم وفقد ألفونس القسم الأعظم من جيشه، بين قتيل وهارب، فخرج في الليل فارا إلى طليطلة لم يبق معه من جيشه إلا مائة، بعد أن كان قد نجا بنحو خمسمائة فارس لقي أربعمائة منهم مصرعهم من أثر الجراح وهم في طريق الفرار.

لقد كان يوسف بن تاشفين يدير هذه المعركة وهو ابن تسع وسبعين سنة، وكان الفقهاء والعلماء يعظون الجنود ويشجعونهم على المصابرة والمواجهة. وعندما انهزم الفرنجة جمعت الأسلاب والغنائم التي تركوها ووضعت بين يدي يوسف بن تاشفين فآثر بها ملوك الأندلس، ولم يأخذ لنفسه أو لجنده شيئا، معلنا أن هدفه كان الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام وليس أخذ الغنائم والأسلاب.

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين كيوم القادسية ويوم اليرموك ثبتت فيه قدم الدين، وعادت إشراقة الحق. لقد أمد هذا النصر في عمر الأندلس المسلمة نحو مائتين وخمسين سنة، وتوقف ملوك الطوائف عن دفع الجزية لملوك الفرنجة، وظهر نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم الإسلامي، وسكنت إلى حكمه قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها له، وأصيب الفرنجة بهزيمة منكرة دفعتهم إلى توحيد صفوفهم وترتيب شأنهم وترك صراعاتهم مما مكن الأجيال التالية منهم من استرداد الأندلس كلها وإخلاء الإسلام منها.

وفي هذه المعركة دروس نافعة للمسلمين في زمننا الحاضر؛ فمناصرة أعداء الوطن عاقبتها ذميمة، والخيانة ووصف العدو المخالف بأنه أقل خطرا من الخصم الموافق عادة قديمة لهؤلاء الخونة. وينبغي للمسلم ألا تضلله هذه الدعاوى الفارغة، وأن يعلم أن هذه الأمة مهما تكن الخلافات الجزئية بين فرقها هي أمة واحدة عدوها واحد ونصرها واحد وحضارتها لا تقوم إلا بها كلها، والله غالب على أمره.

* * *

فتح بلجراد

في شهري شوال/ ذي القعدة ١٤٠٩هـ= يونيو ١٩٨٩م شهد العالم الإسلامي، ولاسيما تركيا وباكستان، احتجاجات هائلة على قيام السلطات البلغارية بأعمال قمع وحشية ضد المسلمين البلغار الذين يزيد عددهم على مليونين ونصف مليون مسلم، ووقفت الحكومة التركية بقيادة تورغوت أوزال موقفا قويا في مناصرة المسلمين (معظمهم من أصل تركي) في بلغاريا.

كانت بلغاريا منذ استيلاء الشيوعيين على الحكم فيها بؤرة اضطهاد دائم للمسلمين، وتوالت عمليات التهجير القسري للأقلية المسلمة فبلغت ذروتها عام في ١٩٥١ (١٦٠٠٠٠ مسلم) ثم في عام ١٩٥٢ (٢٥٠٠٠٠ مسلم) طردوا إلى تركيا. وفي سنة ١٩٨٩ صدرت قرارات حكومية بتغيير أسماء المسلمين إلى أسماء مسيحية، وربط صرف الرواتب والتسجيل في المدارس والنقل من فصل إلى فصل أو مرحلة إلى مرحلة بتقديم شهادة تغيير الاسم من اسم مسلم إلى اسم مسيحي. وكان هذا يعني حرمانا تاما للمسلمين من التعليم والعمل، ومنع الدفن في مقابر المسلمين ومنعت صلاة الجنازة، ومنع صوم رمضان، ومنع الاحتفال بيوم الجمعة والأعياد الإسلامية. وامعانًا في محاولة القضاء على الإسلام في بلغاريا تقرر إغلاق كل جامع أو مسجد يموت إمامه. وواكب هذا كله من حيث الزمن تنفيذ سياسة اغتيالات للزعماء المسلمين، وسجنهم، وقتلهم في السجون بالغازات السامة أو بالصعق بالكهرباء.

وأدي ذلك كله إلى قيام حركة احتجاج إسلامية قوية داخل بلغاريا واجهها الجيش البلغاري بعنف بالغ؛ أدى إلى مقتل العشرات، وإصابة المئات بجروح. واستولت السلطات البلغارية على ممتلكات المسلمين الذين هجروا قسرا إلى تركيا، وأظهرت وسائل الإعلام أمام العالم آثار التعذيب الوحشي، وآثار عض الكلاب على أجساد المسلمين. وأدان العالم كله بما فيه الكتلة الشرقية ـ آنئذٍ ـ الجرائم البلغارية ضد المسلمين. وزعمت بلغاريا أن هؤلاء ليسوا إلا بلغارا مسيحيين أكرهوا ـ أو أكره أجدادهم ـ على اعتناق الإسلام وهي تريد أن تردهم ـ ولو بالقوة ـ إلى ديانتهم الأصلية. فهل كان ذلك صحيحا؟؟

الحق أن هذا لم يكن إلا كذبًا صراحًا أرادت به الحكومة البلغارية يومئذٍ تحويل أنظار العالم عن جرائمها إلى فكرة مخترعة لا أصل لها.

لقد عاش الإسلام في بلغاريا، حاكما لها، أكثر من ثلاثة قرون. وعندما استولى الأوربيون عليها بقي المسلمون فيها قرنين آخرين يعيشون في سلام لا يؤذون أحدًا ولا يؤذيهم أحد. كانت العاصمة بلجراد عندما فتحها المسلمون العثمانيون، في رمضان ٩٢٧هـ، بلا مرافق، ولا شوارع، ولا أحياء منظمة. فبنى المسلون فيها مدينة هائلة أصبحت إحدى أكبر المدن في أوربا الشرقية وشكلت نموذجا حضاريا متقدما بالنسبة إلى الوسط الأوربي حتى أصبحت تُشَبَّهُ بدمشق، فانتشرت فيها المدارس، التي نُظِّمت على غرار مدارس الدولة العثمانية في إستانبول، وبلغ عدد مساجدها ٢١٧ مسجدا، وهو أمر يدل على مدى اتساع المدينة وعدد سكانها في ذلك الوقت، ونُفِّذتْ في المدينة شبكة أقنية مجهزة لتوفير المياه النظيفة التي كانت تستخرج من الآبار. وامتازت بلجراد، بل بلغاريا كلها، عن سائر أوربا بهذه الشبكة المتكاملة للمياه العذبة، وبنيت أبراج للساعات في كل المدن البلغارية؛ لتمكين الناس من معرفة الوقت لضبط مواعيد الصلاة، ولا يزال أكثر هذه الأبراج قائما في المدن البلغارية حتى اليوم.

ونشأ نظام اقتصادي جديد تماما مما دعا عالما مسلما بلغاريا هو (منير يري) إلى تأليف كتاب لشرح هذا النظام الاقتصادي الجديد عنوانه (نصاب الانتساب وأدب الاكتساب) والمقصود بالانتساب هنا الانتساب إلى الصنائع والحرف المختلفة، وأقيمت استراحات القوافل التجارية على جميع حدود البلاد وكانت تسمى (كارفان سراي). بل سبقت بلجراد الإسلامية العالم في إقامة المجمعات التجارية فأقيم بها مجمع كبير كان يطلق عليه (البيزستان) جمعت فيه الأصناف الكثيرة من البضائع بحيث لا يحتاج من يقصده إلى قصد غيره من الأسواق. وأقامت الأوقاف الإسلامية مطاعم شعبية مجانية كان الواحد منها يسمى (العمارة).

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي كانت المخطوطات في مكتبات بلغاريا تبلغ عدة عشرات من الآلاف، وكان بها مدرسة عليا تقوم بالدور الذي تقوم به الجامعات الآن. وكانت مدارس الحديث بها تسعُ مدارس تنفق عليها الأوقاف. وفي سنة ١٨٦٢م استرد الأوربيون حكم بلغاريا، وفي ظل الحكم الشيوعي جرت عمليات الاضطهاد لتكون جزاء سنمار لما قدمه المسلمون لهذه البلاد من نهضة حضارية لم تعرفها منطقة أخرى ـ يومئذ ـ في أوربا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

حرب رمضان ١٣٩٣هـ

مما ينبغي على الأمم الراغبة في الحياة أن تستحضر، في كل جيل، بل مع ميلاد كل طفل جديد، مشاهد عزتها، وصور انتصاراتها، قديما وحديثا. وقد كان هذا هو أحد أهداف هذه السلسلة من المقالات المختصرة (أيام من رمضان). ونتحدث في هذه المقالة والمقالة التي تليها عن حرب رمضان ١٣٩٣= أكتوبر ١٩٧٣ بين المصريين والسوريين، من جانب، وبين العدو الصهيوني من جانب آخر.

إن المعلومات العسكرية والسياسية عما سبق حرب رمضان، وعن الحرب نفسها، وعما وقع بعدها إلى أن أبرمت معاهدة ما يسمى بالسلام بين مصر والعدو الصهيوني، مدونة في آلاف الكتب باللغات كافة بحيث يقف المرء بأدنى مراجعة على هذه التفاصيل، صحيحة موثقة، من الجانب العربي، أو مكذوبة مزورة من الجانب الصهيوني.

وليس في طاقة هذه المقالات أن تؤرخ للمعركة ولا أن تأتي بجديد في الشأن العسكري أو الشأن السياسي. لكن غاية ما ترجوه هو أن تذكر بالمعاني العظيمة التي أحيتها هذه الحرب في النفوس، وبالطاقات الجبارة التي فجرتها في مئات الآلاف من الأفراد العاديين الذين حركتهم الحرب إلى الاهتمام بقضايا وطنهم وأمتهم.

لقد حقق الجيشان المصري والسوري الأهداف الاستراتيجية التي كانت

مرجوة من وراء المباغتة العسكرية الهائلة، التي فوجئ بها العدو الصهيوني على الجبهتين المصرية والسورية، في لحظة واحدة، في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر يوم السبت العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ السادس من أكتوبر ١٩٧٣م.

كان هذا اليوم يوم عيد يهودي يسمى (عيد الغفران) ولذلك سمى الصهاينة هذه الحرب حرب الغفران. وكانت الاستعدادات المصرية لهذا اليوم، وللمواجهة العسكرية بوجه عام، قد بدأت بعد أيام قليلة من الهزيمة المروعة للجيوش المصري والسوري والأردني سنة ١٩٦٧.

لقد احتلت إسرائيل في يونيو سنة ١٩٦٧ سيناء كلها، وكامل الضفة الغربية لنهر الأردن، أي كامل فلسطين التاريخية، ومرتفعات الجولان السورية، واستقرت بها استقرار من لا يظن ـ ولو للحظة واحدة ـ أنه سيتركها ذات يوم. وفي أثناء مناقشات عسكرية بين قادة الحرب الصهاينة علق موشيه دايان على مناقشة احتمال قيام المصريين بالهجوم على القوات الصهيونية عبر قناة السويس، علق ساخرا: «لكي تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاحي المهندسين الروسي والأمريكي معا»، وكان يؤيده في ذلك الجنرال بارليف الذي سميت باسمه التحصينات القوية على الضفة الشرقية من قناة السويس.

يقول المقاتل البطل الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في أثناء حرب رمضان: «إن هذه الشهادة من قادة العدو هي شهادة نعتز بها لأنها تظهر عظمة التخطيط وروعة الأداء اللذين تم بهما إنجاز هذا العبور العظيم». لقد حرمت الخطة العسكرية المصرية العدو الصهيوني من استخدام تفوقه في الأسلحة والعتاد، وحرمته من فرصة إشعال سطح القناة بنيران شديدة الالتهاب يستحيل إطفاؤها بالطرق التقليدية، وأذهبت كل أثر للساتر الترابي الهائل وتحصيناته القوية (خط بارليف). ولكن الأهم من ذلك كله أن خطة العبور قد نُفذت بمنتهى النجاح، بل بتوفيق من الله سبحانه وتعالى،

وعبرت القوات المصرية نهارا، واستمر العبور متواصلا إلى أن أصبحت القوات المقاتلة كلها شرق القناة. وكانت النتيجة هي الهزيمة غير المسبوقة، بل الهزيمة الأولى، للجيش الصهيوني، وقعت نتيجة هذا التخطيط المحكم لمهاجمة العدو.

□

إن المعارك التي دارت في الميدان لم تكن أقل أثرا ولا أعظم خطرا من المعارك التي دارت داخل مدينة السويس، عندما أراد العدو احتلالها، نتيجة العملية التي سميت بعملية (الثغرة) التي تمت بدخول قوات العدو في نقطة غير مغطاة بقوات مصرية بين مواقع الجيشين الثاني والثالث في منطقة الدفرسوار. وكانت الثغرة مقدمة لمحاولة العدو الصهيوني احتلال مدينة السويس. لقد قال الجنرال أهارون ياريف قبيل ذلك بقليل: «إن الوضع ليس سهلا ولا بسيطا، والحرب من شأنها أن تطول. إن الجيش الإسرائيلي في وضع صعب، وقد اضطر إلى الانسحاب من خطوط وقف القتال (أي الأماكن التي احتلها بعد حرب ١٩٦٧) إلا أن ذلك لا ينبغي أن يجعلنا نخاف بالنسبة لشعب إسرائيل أو مستقبله».

أما موشيه دايان فقد قال يوم ٩ أكتوبر: «ليس لدينا في الوقت الحالي إمكانية رد المصريين إلى ما وراء القناة، لقد دُمرت المئات من مدرعاتنا في المعركة، وفقدنا خمسين طائرة في ثلاثة أيام ويجب أن ننسحب إلى خط دفاع جديد داخل سيناء.... إن ما يعنينا هو مستقبل دولة إسرائيل ولتذهب البحيرات المُرة (كانت خط الدفاع الصهيوني الأول) أو سواها إلى الشيطان»!!

لقد كانت بداية التسلل الإسرائيلي نحو السويس في اليوم الحادي عشر من أيام حرب رمضان (٢١ رمضان ١٧ أكتوبر). وكان الهدف هو احتلال السويس بكل ما تمثله من قيمة ووزن تاريخ واسم عالمي. واستعدت السويس للمقاومة التي كانت مقاومة شاملة شارك فيها الأهالي والعسكريون الموجودون في السويس وأفراد

الشرطة وعمال شركات البترول وهيئة القناة وأفراد الجهاز الحكومي ومتطوعو المقاومة الشعبية والدفاع المدني وبوجه خاص أبطال منظمة سيناء.

وقاد المسجدُ المقاومةَ: فكان مسجد الشهداء، الذي يؤمه ويرأس مجلس إدارته الشيخ حافظ سلامة، هو مقر المقاومة، منه تنطلق، وفيه تحفظ إمداداتها، وبما يجري فيه ترتفع الروح المعنوية للمقاومين جميعا.

عندما فكرت بعض القيادات التنفيذية المحلية في التسليم لليهود إنقاذا للمدينة وسكانها بدأ الإباء من الشيخ حافظ سلامة، وشاركه فيه رجال المقاومة الشعبية، وضاعف من قدرتهم على التصميم عليه انضمام قادة القوات المسلحة وضباطها الذين كانوا في السويس إلى هذا الرأي، وارتفع من مكبرات صوت المسجد نداءٌ بصوت الشيخ حافظ سلامة إلى أهل السويس يقول: «إن اليهود قد أنذروا المدينة بالاستسلام، وإن المدينة قد رفضت هذا الإنذار بإذن الله، وقررت مواصلة القتال إلى آخر قطرة من دمائنا، وعلى كل فرد من أفراد المقاومة أن يدافع عن موقعه إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، وما النصر إلا من عند الله».

لقد فقد اليهود في مدينة السويس ٦٧ دبابة ومصفحة، من الدبابات التي حاولوا أن يحتلوا بها مدينة السويس. هذا غير العربات المصفحة والعادية. وسحب اليهود كل ما استطاعوا سحبه من قتلى الجيش الصهيوني وجرحاه ومع ذلك فقد تركوا خلفهم ٣٣ جثة لم يستطيعوا سحبها، وصرح الناطق العسكري للجيش الصهيوني بأن قواته لم تدخل إلى مدينة السويس، ولم تسيطر عليها في تكذيب صريح لتصريحاتهم السابقة.

لقد انتهت هذه الحرب العظيمة ـ حرب رمضان ١٣٩٣ـ بمعاهدة تسمى بمعاهدة السلام بين مصر والعدو الصهيوني. ويحلو لبعض أصحاب الأقلام وذوي الألسنة أن يقولوا إنه ليس بيننا وبين الصهاينة عداوة بل صداقة. وهؤلاء يَغفلون عن أن أحدا لا يبرم معاهدة سلام مع أصدقائه، وإنما يسالم الناس

أعداءهم، لمدة من الزمن، يسعى فيها كل طرف إلى استعادة قوته وترتيب عدته ليوم تقع فيه جولة جديدة من جولات العداء؛ وهذا واقع آت لا ريب فيه، وقد كذب الحاضر الصهيوني ظنَّ بعض الطيبين أن حرب رمضان هي آخر الحروب، وأن حقن دماء الشباب العربي ممكن مع وجود العدو الصهيوني في أرضنا، وثبت خطأ القياس على صلح الحديبية إذ كان عملا مداره كله على الوحي، وتبين، بعد الحرب على لبنان سنة ٢٠٠٦ والحرب على غزة سنة ٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩، أن ترك الجهاد مع استمرار الاحتلال لا يجوز.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٥، ١٦).

والحمد لله رب العالمين.

* * *

أيام من رمضان

شَهد رمضان على مدار عمر الإسلام أيامًا عظيمة خلدها التاريخ، وغيّر بعضها من معالم تاريخ الإنسانية كله، وعلم بعضها المسلمين دروسًا لا تنسى، ولأنه شهرٌ يرفع من الروح المعنوية للمسلمين ويقوي قدرتهم على العطاء لدينهم فإن كثيرًا من هذه الأيام كانت من وقائع القتال في سبيل الله الذي آزر النصر فيه المسلمين مؤازرة غيرت من واقعهم ومن واقع أعدائهم، ووضعت لبنات ثابتة في بناء الدولة الإسلامية في زمنها القديم والحديث.

وقد اخترت لهذا الشهر الكريم (رمضان ١٤٣١هـ) عددًا من الأحداث المهمة في التاريخ الإسلامي السياسي، وقفت عند كل حدث منها محاولاً صنع ما ذكرت من تحقيق الفائدة للحاضر والمستقبل في ضوء دروس الماضي ووقائعه. وتبدأ هذه الأيام بيوم بدر الذي هو يوم النصر السياسي الأول في تاريخ الإسلام والمسلمين. ثم تمر بنا في هذه الأيام وقائع من قرون الإسلام الأربعة عشر الماضية إذ يأتي لقاؤنا مع اليوم الأخير في حرب رمضان ١٣٩٣هـ/ أكتوبر ١٩٧٣م.

وبين هذين اليومين العظيمين تأتي أيام عديدة وقعت في أماكن مختلفة من أرض الإسلام، لكل يوم فيها خصائصه وأسبابه ونتائجه التي ينبغي أن نعلمها لأبنائنا، وأن نجعل منها حديثًا نافعًا في مجالسنا، وأن نعرف أسماء الأماكن ومواضعها، وأن نعرف أسماء الأبطال الذين شاركوا في مواقعها وأن ندرك أثر كل يوم منها في إنشاء حضارتنا، أو المحافظة عليها، أو توسيع نطاقها.

محمد سليم العوّا

دار الشروق
www.shorouk.com

6 221102 027212